

ZIDNI ILMAN
زدني علماً

جماعة من
فلاسفة الإنكليز المعاصرين

طبيعة الميتافيزيقا



طبيعۃ اليتافيريقا

جَمَاعَةٌ مِنْ
فَلَا سِفَّةِ الْإِنْكَلِيزِ الْمَعَاصِرِينَ

طَبِيعَةُ الْمِيتَا فِرِيقَا

شَرْحَةٌ
الدُّكْتُورِ كَرِيمِ مَقِّي
مَرَاة
الدُّكْتُورِ كَامِلِ مُصْطَفَى الشَّيْبِي

عَوِيدَاتُ لِلنَّشْرِ وَطَبَاعَةِ

بِیروت - لُبْنَان

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لـ
© دار عويدات للنشر والطباعة
بيروت - لبنان

الطبعة 2018

مقدمة المترجم

من دواعي سروري ان اقدم لطلبة الفلسفة وقرائها هذا الكتاب « طبيعة الميتافيزيقا » الذي صنفه عدد كبير من كبار فلاسفة الانكليز المعاصرين على شكل احاديث نشرت على الاثير من محطة هيئة الاذاعة البريطانية B.B.C (المنهاج الثالث) والكتاب يتناول موضوع الميتافيزيقا من شتى جوانبها ويحيط بها احاطة شاملة . وهذا هو السبب الذي دفعني إلى ترجمة الكتاب الى اللغة العربية لكي يفيد منه القراء عامة والطلبة خاصة . واملئ وطيد ان نجني منه الفائدة المطلوبة ..

الفصل الاول

الميتافيزيقا

METAPHYSICS

ترمي هذه الدراسة الى البحث في طبيعة الميتافيزيقا ومعرفة الخصائص التي تميزها عن سائر الموضوعات الفلسفية الأخرى . وهذه والحق مسألة لا تمكن معالجتها في حيدة وتجرد . ولا بد لنا ان نذكر - بادئ ذي بدء - ان عدداً كبيراً من الناس يرى ان الكشف عن المبادئ الميتافيزيقية هو شغل الفلاسفة الشاغل ، بل ويذهب بعضهم الى ان الميتافيزيقا هي السرر الوحيد لوجودهم . ومن ناحية أخرى تعتقد طائفة من الناس ومن بينهم بعض الفلاسفة ان المبادئ الميتافيزيقية زائفة جملة وتفصيلاً ، وانها خلو من اية دلالة على الاطلاق . من هذا يتبين ان الميتافيزيقا قوة عجيبة في اجتذاب الناس اليها وتنفرهم عنها . ففريق منهم يتطرف في نصرتها وفريق يغلو في خصومتها . واذا كان هذا هو شأن الميتافيزيقا ، تتعين علينا ان نبحثها في روح بعيدة عن الهوى ، ما امكن ، لتبين جليلة امرها .

ان الميتافيزيقا عنوان مقالة صنفها ارستو Aristotle^(١) ، فوصفها فيها

(١) ارستو Aristotle (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) اسهر فلاسفة اليونان تتلمذ على افلاطون وبعد وفاة الاخير اسس ارستو مدرسة خاصة به في اثينة عرفت باسم « اللقيوم » Lyceum او « بريباتوس » (المشي) ولذلك عرفت بالاشائية Peripatetics لان =

بانها علم الوجود بما هو كذلك ، واعتبرها اسمى دراسة عامة للوجود Existence او الحقيقة Reality وعدّها متميزة عن العلوم الخاصة واعمق منها . وقد استدل ارسطو على ضرورة وجود الميتافيزيقا لأن العلوم الخاصة التي يعالج كل منها موضوعاً خاصاً به ، تشترك في استخدام مفاهيم عامة كالذاتية Identity والاختلاف Difference والوحدة Unity والتعدد Plurality وما اشبه وهي بمجموعها تكون موضوع علم الوجود العام (او الميتافيزيقا) اما الاقسام المختلفة الاخرى من الوجود (او الحقيقة) التي لكل منها سماته الخاصة فتكون موضوعات الدراسات الجزئية (١)

لا شك في أن القول إن « الميتافيزيقا » اسمى دراسة عامة (لِلوجود) تستلزمها العلوم الخاصة على نحو من الانحاء قول لا يخلو من صواب

— ارسطو كان يمثي وهو يلقي الدروس على التلاميذ . وقد وضع ارسطو التصنيف في مختلف فروع المعرفة آنذاك ، فكتب في الفلسفة والمنطق والاخلاق وعلم النفس والشم والسياسة والحطابة والحياة وما الى ذلك

(المترجم)

(١) يقصد بالدراسات الجزئية العلوم الخاصة كالفيزياء والكيمياء وعلم الحياة والطب التي يتناول كل واحد منها جزءاً من الطبيعة دون الاجزاء الاخرى بعكس الميتافيزيقا التي تبحث في الطبيعة أو الكون بجملته .

(المترجم)

فنجده مثلاً في صور متفاوتة عند ديكارت Descartes^(١) ولايبنز Leibniz^(٢) وكانت Kant^(٣) . وإذا شارك نفر من الميتافيزيقيين ارسطو. الرأي في طبيعة الميتافيزيقا العامة والشاملة والقصوى ، فانهم لا يذهبون

(١) ديكارت R. Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠) فيلسوف ورياضي وفيزيائي فرنسي . ويُعد ابا الفلسفة الحديثة لأنه استطاع ان يتحرر في تفكيره من كل آثار الارسطية التي كانت مسيطرة على الفلسفة طوال القرون الوسطى ومطلع العصر الحديث . وتستند فلسفته الى عبارته المشهورة « انا افكر فانا موجود » . Cogito ergo sum (المترجم) اقراله في منشورات عويدات : ديكارت والعقلانية (الناشر)

(٢) لايبنز G.W. Leibniz (١٥٤١ - ١٧١٦) من اعلام فلاسفة الالمان في القرن السابع عشر ومن اعظم المفكرين قاطبة ، وقد جاء بنظام جديد في الفلسفة هو ان العالم يتكون من مراكز قوى فردية أو موناتات Monads وهي جواهر روحية مستقلة الواحدة عن الاخرى متطورة بذاتها وواعية .

(المترجم)

(٣) كانت I. Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤) اعظم فيلسوف انجيته ألمانيا ، حاول في فلسفته ان يجمع بين الاختبارية Empiricism التي ترد المعرفة الى الاحساس والعقلية Rationalism التي تردّها الى العقل ، وان المعرفة حصيللة الاحساسات التي تقدمها الحواس والصور التي يقدمها العقل الشري ، وان العلم قاصر على الظواهر Phenomena . ولكن نحن البشر نميل بطبيعتنا الى الاعتقاد بوجود عالم آخر يقدم وراء الظواهر هو عالم الاشياء بالذات Things-in-themselves لان حياتنا الخلقية وإيماننا وأملنا في الخلود كلها تفرض علينا هذا

(المترجم)

مذهب ديكارت او كانت من أنها تُعنى بوضع اسس العلم . فبرادلي^(١) Bradley على سبيل المثال يقول : « قد نجم على ان الميتافيزيقا محاولة لمعرفة الحقيقة في مقابل الظاهر أو دراسة المبادئ الاولى أو الحقائق القصوى أو العمل على فهم الكون بما هو كل على نحو ما لا اجزاء متفرقة . ولا ريب بأن هذا يتفق مع رأي أرسطو في مقابلة الميتافيزيقا بالدراسات الخاصة أو فيما يقول برادلي بالدراسات الجزئية ، ذلك ان عبارة « محاولة معرفة الحقيقة » لها نفس معنى العبارة « دراسة الوجود بما هو كذلك » فيتفق كل من ارسطو وبرادلي على ان الميتافيزيقا يُعنى باكتشاف « المبادئ الاولى » . ولكن برادلي سخر بمن زعموا انهم في بحثهم الميتافيزيقي انما كانوا معنيين بالتوصل الى مستلزمات العلم أو اسسه .

على ان نظرة بعض الفلاسفة المعاصرين الى الميتافيزيقا تختلف كثيرا في الظاهر على الأقل عن النظرة المتقدمة لها . فجون وزدم^(٢) John Wisdom مثلا الذي يصف العبارة الميتافيزيقية بانها كذبة بقاء وتناقض

(١) برادلي G. Bradley (١٨٤٦ - ١٩٢٤) فيلسوف انكليزي عمل على تطهير الفلسفة الانكليزية المعاصرة من آثار الاختبارية الحسية والنفعية ، واخذ بمذهب المثالية المطلقة .

(المترجم)

(٢) جون وزدم John Wisdom (١٩٠٤ -) فيلسوف بريطاني . استاذ الفلسفة بجامعة كامبردج . يرى هذا الفيلسوف ان العبارات الفلسفية ليست الا توصيات لفظية .

(المترجم)

ظاهر يستغل اللغة بشكل عجيب مشير ليلفت انتباهنا الى وجوه من الاختلاف والشبه القائمة بين الاشياء التي نغفل عنها في حالة استخدام لغة الحديث الاعتيادية . ولا شك ان وزم لا يزعم ان وصفه هذا للقضية الميتافيزيقية كامل وربما كان مجانباً للصواب ، وقد يكون اقرب الى الكذبة البلقاء منه الى اي شيء آخر . وعلى اية حال فليست الصلة بين رأي وزم من ناحية ورأي أرسطو وبرادلي من ناحية اخرى جلية وواضحة في هذا المجال .

على انه يمكننا ان نستشف صلة بين الرأيين . ونبدأ فنقول : ليست العبارات الميتافيزيقية كلها متناقضات تلفت النظر الى وجوه من الاختلاف والشبه لا نلاحظها في العادة ، اذ ان كثيراً من هذه العبارات من الغموض بحيث يتعذر فهم معناها الا بعد عناء كبير ، بينما ينبغي في المتناقضة ان نصطنع لها مضاهيم مألوفة لانها تقوم في الاساس على ما فيها من قوة المفاجأة . ولا يمكن لامرئ ان يفاجئ الناس اذا استخدم عبارات مغلقة يتعذر عليهم فهم معناها . وبرغم ذلك كله تقوم صلة بين التناقض الذي ذكره وزم وبين الميتافيزيقا . هبنا درسنا المتناقضة القائلة ان كل واحد منا في الحقيقة وحيد دائماً . فاذا نظرنا اليها من حيث هي وجدناها انها ليست أكثر من قول مأثور يبين حال الانسان أو على الاقل تجعل الفروق بين حال الانسان في عزله وحاله في اجتماعه مع ابناء جنسه ادنى ما يمكن . على أنا اذا نظرنا الى هذه المتناقضة من حيث هي قضية تعززها الحجّة القائلة ان معرفة العمليات العقلية عند الناس الآخرين انما هي على أحسن الأحوال مجرد ظن لا يمكن التحقق منه اذ ان العقل والجسم شيان متمايزان تماماً وان عمليات

العقل تقوم دائماً وراء ستار من المظاهر الجسمية . وبعبارة أخرى ، اذا نظرنا الى هذه المتناقضة التي تؤكد عزلة الانسان وانفراده ضمن اطار نظرية عامة في العقول والاجسام وامكانيات المعرفة وحدودها ، فعندئذ يصح ان نقول دون تحفظ ان هذه العبارة ميتافيزيقية . لكن هذا لا يعني ان العبارة لا تعد ميتافيزيقية مطلقاً على نحو ما عند تجريدها عن هذا الاطار ، والحق ان قولنا « كل واحد منا في الحقيقة وحيد » يحملنا على تغيير نظرتنا الاعتيادية الى الاشياء لحظة واحدة على الاقل ومن زاوية معينة ويشير الى ان هذه الفكرة اصدق من سابقتها واعمق منها . ولا بد ان نذكر في هذا المقام ان جزءاً من وصف برادلي للميتافيزيقا من حيث هي « محاولة لمعرفة الحقيقة مقابل المظهر » ، يشير فيما يبدو بدعوة عامة الى تغيير شامل عميق في وجهة نظرنا . وربما كان في امكاننا ان نقول : ان طلب الشمول الذي يضيف على الميتافيزيقا طابعها المميز في رأي ارسطو وبرادلي ، يؤدي في الغالب الى تغيير في وجهات النظر يظهر في صور متناقضة تميز - فيما وجد وزدم - العبارة الميتافيزيقية .

وقد آن لنا ان نسأل : ما معنى قولنا ان الميتافيزيقا ينبغي ان تقدم نظاماً أو نسقاً شاملاً للحقيقة ؟ للجواب عن هذا السؤال نقول : تكون كل نظرية في طبيعة الحقيقة شاملة اذا انطلقت على أجزاء الحقيقة دون استثناء ؛ وتكون متسقة أو منتظمة اذا كانت القضايا الداخلة في بنائها معتمدة على بعضها الآخر ، أي اذا كانت هذه القضايا غير مقسمة الى عدد من المجموعات المستقلة عن بعضها الآخر . ويمكننا ان نمثا للنظام بالمعنى المطلوب خمر تمثيلاً بالنظام الاستدلالي الذي تُستخلص بمقتضاه من عدد

محدود من البديهيات سائر قضايا النظرية الاخرى باعتبارها نتائج منطقية لها . ومما هو جدير بالملاحظة ها هنا ان بعض الميتافيزيقيين في القرن السابع عشر اعتقدوا ان الميتافيزيقا تؤلف نظاماً استدلالياً . ورب معترض يقول : اذا كان لا بد لنا ان نفهم فكرة وصف الحقيقة وصفاً شاملاً ومنظماً على هذا النحو ، وجب ان نعتبر العلم في جملته ميتافيزيقا . فمن الملاحظ ان الفيزياء - وهي احد العلوم الخاصة - متسقة ومنظمة بما فيه الكفاية وتعالج الحقيقة كلها . لكن هذا الاعتراض ليس في محله ، لانه اذا جاز أن نقول ان الفيزياء تعنى بالحقيقة كلها ، فلا يجوز ان نقول انها تعنى بكل مظهر أو جانب من جوانب الحقيقة . حقاً ان القوانين الفيزيائية تفسر جزءاً من سلوك الكائنات الحية ، غير أننا اذا اردنا ان نعرف كيفية نمو الكائنات الحية وتطورها ، ترتب علينا ان نسترشد بعالمه الاحياء لا بالعالم الفيزيائي . وعليه يمكن القول ان الفيزياء لم تصحح شاملة الى حد نستطيع معه اعتبارها ميتافيزيقا . وان كان من الممكن اعتبار العلم في جملته شاملاً من حيث ان كل جانب من جوانب الحقيقة يقع تحت هذا العلم الخاص أو ذاك ، فإن العلوم الخاصة من الاستقلال عن بعضها البعض بحيث يصعب اعتبار العلم في جملته نسقاً أو نظاماً واحداً .

وثمة صعوبة في التمييز بين الميتافيزيقا والعلم . فقد يتقدم العلم يوماً من الايام تقدماً يدعونا الى اعادة وضعه كله في نسق أو نظام واحد . من نحو ذلك ان علم الحياة قطع خطوات جبارة في مضمار التقدم فأصبح من الممكن اعادة تفسير مفاهيمه الاساسية بواسطة المفاهيم الفيزيائية . فأصبحت الظواهر البيولوجية خاضعة الى القوانين الفيزيائية . وعلى العموم نتوقع

توسيع مجال تطبيق النظرية الحركية في الغازات Kinetic Theory of Gases التي ساعدت على اعتبار بعض القوانين المستقلة في الظاهر والمتعلقة بالغازات جزءاً من نسق واحد اوسع بعد ان تبين انها حالات خاصة لقوانين ديناميكية . وهذه النتيجة ثمرة اعتبار الغازات مجموعة من الدقائق واعادة تعريف بعض المفاهيم المتضمنة في القوانين الخاصة بالغازات بواسطة خواص هذه الدقائق . على ان تحقيق مثل هذا التوحيد أو التنسيق للعلم كله في الوقت الحاضر اضغاث احلام وربما كان من الناحية المنطقية مستحيلاً ، مع انه لم تثبت استحالته - ولو تحقق افتراضنا هذا لم اعتبر العلم المنسق الناتج من ذلك ولا اعم اقسامه نظاماً ميتافيزيقا على أى وجه من الوجوه .

وما ينبغي ان يلاحظ ان الامتناع عن اطلاق لفظ الميتافيزيقا على العلم المنظم ليس من التحيز في شيء ، ذلك لانه علم وكفى ، اذ ان القوانين العلمية في اشمل صورها واعمقها تعتمد على الملاحظة والتجربة وهما امران لا يمتان بصلة الى النظام الميتافيزيقي من قريب أو بعيد ، فستظل المناهج العلمية وطرق اختيار القوانين العلمية والتثبت منها مغايرة تماماً عن نظائرها في الميتافيزيقا . وهكذا تواجهنا صعوبة أخرى هي انه اذا صح الزعم بأن الديسيات وأعم القوانين التابعة لعلم موحد معين لا تعتبر ميتافيزيقا، فإن العديد من الميتافيزيقيين رأوا على الأقل ان احد واجباتهم الاساسية هو وضع اسس العلم . من هذا وجب علينا ان نتساءل كيف فهم الميتافيزيقيون العلاقة بين الاسس الميتافيزيقية والعلم الذي اقيم عليها . لاشك ان هذه

العلاقة ينبغي الا تعتبر مجرد علاقة بين اعم القوانين الطبيعية والقوانين
الادنى منها شمولاً واتساعاً

ومما يجدر ذكره هنا ان الميتافيزيقيين لم يسألوا انفسهم هذا السؤال في
سراحة . وما كان سيعرف جوابهم لو انهم فعلوا ذلك باستثناء كانت وفريق
من الفلاسفة . فقد كان من رأي هذا الفيلسوف ان لبعض المبادئ
مكانة خاصة في حقل المعرفة الانسانية لأنها تبين الشروط التي لا بد ان تتوفر
لقيام المعرفة العلمية الطبيعية من حيث هي نظام مكاني زمني . وفوق هذا
يرى كانت ان هذه المبادئ بالذات لا تعتبر جزءاً من العلم ، وانما تبين
شروط قيام العلم وكذا قيام المعرفة اليومية في حياتنا المعتادة . ومن واجبات
الميتافيزيقي - عند كانت - اكتشاف ماهية تلك المبادئ والأفكار الاساسية
التي تنطوي عليها وكذا البرهان على انها تنفرد بهذه الصفة - وهو البرهان
الوحيد الذي يمكن ان يقام عليها . ومهما تكن العيوب في مبدأ كانت ، فانه
قد اوضح فيه على الاقل ان الميتافيزيقيات تعنى بشروط العلم ومستلزماته وليس
بأعم جزء منه وحسب .

لكن هذه العيوب كانت على جانب من الخطورة . فقد تباينت مبادئ
كانت الاساسية في جوهرها كثيراً ، ولا نجد الآن إلا نفرأ قليلاً من الفلاسفة
يجمعون على انها تنطوي على الشروط العامة لامكانية قيام المعرفة العلمية ،
بل وان غالبيتهم - على العكس من ذلك - ليشكون في امكان وضع بديلاً لها
يحظى بهذه المنزلة بالنسبة الى العلم . وربما كان أقرب الى الصواب الأخذ
بالرأي القائل : ان هذه المجموعة من الافكار أو المبادئ تحدد - على نحو ما

يقصده كانت - الشروط الاساسية لميدان معين من البحث العلمي وربما للعلم في فترة معينة لا للمعرفة العلمية على العموم . وقد كانت هذه في الحقيقة فكرة كولنكوود^(١) Collingwood في طبيعة الميتافيزيقا فيها- في رأيه - تُعنى باكتشاف مستلزمات العلم أو شروطه في فترة معينة . ولكن يجب ان لا يُعَد الميتافيزيقي - كما عده كولنكوود - عالم الآثار الفكرية وحسب ، بل قد يأخذ على عاتقه الدعوة الى اتجاهات جديدة في البحث العلمي دون الاهتمام باكتشاف الآثار العلمية المتبقية .

وبما هو جري بالملاحظة ان هذا الضرب من التفكير في طبيعة الميتافيزيقا لم يقتصر على فيلسوف تقليدي نسبياً مثل كولنكوود ، انما نجد له نظيراً في افكار كارناب^(٢) Carnap الذي كان في يوم من الايام احد اعضاء جماعة فينا الفلسفية المتطرفة . فقد وضع كارناب حداً فاصلاً بين المسائل التي تنشأ ضمن Within نظام معين من المفاهيم أو اطار من الافكار والمسائل التي تثار حول about ذلك الاطار أو النظام . فأما المسائل الاولى فإنها تتصل

(١) كولنكوود R.G. Collingwood (١٨٨٩ - ١٩٤٣) فيلسوف انكليزي كان استاذ الفلسفة في اكسفورد وكان الى المثالية أقرب منه الى اي شيء آخر .

(المترجم)

(٢) كارناب R. Carnap (١٨٩١ - ١٩٧٠) من رواد حركة الوضعية المنطقية ، اهتم بتطبيق المنطق على مشكلات نظرية المعرفة وفلسفة العلم . . وله مؤلفات عديدة في هذا المجال .

(المترجم)

في رأيه بميدان علم من العلوم أو بالحياة اليومية وتعالج بالطرق الخاصة بتلك العلوم . وأما المسائل الأخرى فقد ظهرت في الميتافيزيقا بصورة جعلتنا نتوهم انها تدور حول حقيقة أو وجود طائفة من الأشياء العامة التي تناظر الأفكار الأساسية في ذلك النظام من المفاهيم . وهكذا تساءل الفلاسفة : ما الرأي في وجود أشياء كالاعداد وهل النقاط المكانية الزمانية في الفيزياء حقيقة وما الى ذلك من الاسئلة ؟ على انه لا يمكن ان نفهم هذه الاسئلة ونظائرها على حقيقتها الا اذا قلنا انها تثير مسألة عملية هي : هل ينبغي ان نحتضن ونستخدم نظاماً أو اطاراً عاماً معيناً من الأفكار أم لا ؟ واذا اجبنا عن هذا السؤال ايجاباً ، كان ذلك معناه فيما يراه كارنب الاخذ بمثل هذا الاطار واستخدامه ، ومن ثم تحديد مجال البحث كله من حيث الشكل والاتجاه .

والظاهر ان نظرة كارنب هذه تجعل وجود العبارات الميتافيزيقية - على عكس القرارات الميتافيزيقية - سرّاً من الاسرار . ومن الممكن حل هذا السر من حيث المبدأ اذا قلنا ان الميتافيزيقيين يعنون بنوع من الدعاية لمصلحة نظام معين من المفاهيم يرون انه ضروري لتطور العلم في اتجاه معين . وتكون الدعاية الذهنية أو الميتافيزيقية .. شأنها شأن كل ضروب الدعاية - مستهدفة للتشويه والمبالغة . وأحد ضروب هذه الدعاية فيما تشير اليه ملاحظات كارنب هو اسباغ صفة الوجود الحقيقي على طائفة من العموميات والميل الى نفى هذا الوجود عن أشياء أخرى تعد أقل اهمية . ويمكن في هذا المجال ان نذكر انه منذ عهد ارسطو الى نهاية القرن التاسع عشر كان الجوهر اشرف تعبير تقليدي يطلق على الأشياء التي قيل انها حقيقية ، ولذلك تنزل

الموجودات ذات الخطوة في أي نظام ميتافيزيقي منزلة الجواهر في حين لا ينال ما سواها الا مكانة ثانوية ، بل ربما قيل انها عرض فقط. هذا وقد اختلفت الموجودات التي نالت الخطوة على هذا النحو ، فهي العقول أو الارواح عند باركلي^(١) Berkeley وهي مراكز شبه عقلية من الخبرة الواعية أو غير الواعية عند لايتنز . اما هيوم^(٢) Hume فقد كان يميل الى السخرية من هذه الفكرة كلها ، ولكنه اعتقد انه اذا كان شيء يستحق هذا الاسم ، فلا بد ان يكون الادراكات الحسية أو الصور الفردية . ثم جاء سبينوزا^(٣) Spinoza فرأى ان الجوهر هو كل شيء أي انه النظام الكلي الشامل المتوحد للحقيقة الذي اطلق عليه اسم الله أو الطبيعة .

(١) باركلي G. Berkeley (١٦٨٥ - ١٧٥٣) انكليزي ، حارب المادية والاحاد ودعا الى الايمان ، ويمكن ان نوجز فلسفته بالعبارة « الوجود قائم في الادراك »
esse is percipii ولا وجود لغير الأرواح والافكار .

(المترجم)

(٢) هيوم D. Hume (١٧١١ - ١٧٧٦) فيلسوف انكليزي سار على نهج لوك وباركلي في رد المعرفة الى الاحساس ، وانتهى الى الشك . يعتبر مؤسس الوضعية المنطقية في الفلسفة الحديثة .

(المترجم)

(٣) سبينوزا B. Spinoza (١٦٣٢ - ١٧٧٧) فيلسوف هولندي من أصل يهودي ، انكر وجود جواهر متعددة وقال ان الكون مجموعه يؤلف جوهرأ واحداً هو الله أو الطبيعة .

(المترجم)

وفي ديكارت يتهاى لنا افضل مثال يوضح هذه النقطة ، فقد كان على العكس من باركلي وهيوم فيلسوفا ذا ذهنية علمية وله أفكار واضحة عن الاتجاه العلمي السليم . والظاهر انه عد الرياضيات وبخاصة الهندسة ممثلة للنهج العلمي الصحيح . وقد أثر ذلك في تفكيره على نحوين : فأولاً أعتقد ان الطريقة المثلى التي ينبغي على العلم أن يأخذ بها هي الطريقة الاستنتاجية التي نجدها في الهندسة ، وتقوم فيما تفسر على الاستدلال المحكم (لقضايا) من بديهيات بيئة بذاتها . وثانياً رأى ان موضوع العلوم الطبيعية كلها من الميكانيك حتى الطب لا تختلف من حيث الجوهر عن موضوع الهندسة على الاطلاق . ولما كانت الاوصاف المكانية هي الصفات الوحيدة التي تعنى الهندسة بدراستها ، كانت هذه الصفات من الوجهة العلمية على العموم الصفات الوحيدة في العالم الطبيعي ، وكان العلم الطبيعي ، من ثم ، ضرباً من الهندسة الديناميكية ، ومن هذا نؤثر طريقة علمية خاصة هي الطريقة الاستنتاجية ، كما تؤثر تفسيراً علمياً معيناً هو التفسير الميكانيكي ، وكان لهذه الأفكار في توجيه الطريقة العلمية صداها في مذهب ديكارت في الوجود أي في الأشياء الحقيقية الموجودة . فقد أعتقد انه بالإضافة الى الله أو الجوهر الالهي يوجد صنفان من الجواهر أو الكيانات الحقيقية هما : أولاً الجوهر المادي أو المادة ، وثانياً العقول أو الجواهر العقلية . فيتصل بالاعتقاد بأن الصفات المكانية هي من الوجهة العلمية الصفات المهمة الوحيدة للأشياء في العالم الطبيعي ، ثم تحول - فيما تقول الميتافيزيقا - الى المبدأ القائل ان هذه هي صفاتها الحقيقية الوحيدة . اما بالنسبة الى العقول أو الجواهر العقلية فقد اعتقد بوجودها وذهب الى ان

ماهيتها التفكير . وينبغي ان نشير هنا الى ان التفكير في صورته البحتة على الاقل لم يتعد كونه ادراكاً حدسياً (مباشراً) للبديهيات البينة بذاتها وللنتائج التي تستبعا . وقد اقتضت هذه المبادئ التي فرضت قيوداً على الحقيقة ، ومن ثم على المعرفة ، اجراء تعديلات في النظام الذي الفناه للاشياء مما ساعد الجوهر الالهي على سندها .

ولا شك ان النظام الميتافيزيقي لا ينطوي على مثل هذا الاثار الانتولوجي (الوجودي) أي المليا الى رفع طائفة أو طائفتين من الموجودات الى منزلة الاشياء الحقيقية دون سواها . ولا يعرف عن كانت الذي كان معنياً بأسس العلم عناية ديكارت بها انه نادى بمثل هذا الاثار . ويبدو ان كانت كان مستعداً للقول بأن كل ضروب الظواهر العامة التي نصادفها في عالم التجربة حقيقية وبتعبير أدق انه اعتقد - كما نفعل عادة - ان التفريق بين الاشياء الوهمية والاشياء الحقيقية يقع في داخل هذه الضروب وليس فيما بينها . ومع ذلك فلم يكن كانت راغباً في ان يسف على الاشياء العامة التي نصادفها الا حقيقة نسبية أو تجريبية على حد تعبيره . فقد نادى بأن عالم الطبيعة الذي يدرسه ليس الا مظهراً وحسب اذا قورن بالحقيقة المتعالية^(١)

(١) متعال Transcendent لا بد من الاشارة الى وجود اختلاف في معنى كلمة « متعالي » أو « مفارق » Transcendent و « صوري » أو « شرطي » Transcendental . فاما الأولى فتعني ما هو عصي على الادراك البشري واما الثانية فتعني الشروط العامة للخبرة اي العناصر العقلية التي ينبغي افتراضها لكي تكون الخبرة خبرة اصلا .

(المترجم)

Transcendent والمستعصية على المعرفة التى تقوم فيما وراءه . وهكذا حط كانت فى مكانة الاشياء التى نعرفها لمصلحة الاشياء التى لا نعرفها ولا نستطيع ان نعرفها ، على ان هذا التقابلا أو التضاد التام بين المظهر والحقيقة ربما كان عنده أقل أهمية فى مجال العلم عنه فى ميدان الاخلاق ، لأن الحقيقة المتعالية ذات أهمية الينا لا من حيث اننا علماء بها من حيث اننا كائنات اخلاقية ، ولا باعتبارنا مخلوقات نعالج مشاكل المعرفة بها باعتبارنا مخلوقات نعالج مشاكل السلوك . من هذا يظهر طموح كانت الميتافيزيقي العظيم ، اذ سعى الى ان يضمن وضع اسس العلم واسس الاخلاق فى وقت واحد .

والنقطة الاخيرة على جانب من الاهمية ، لأنه اذا كان الاهتمام باسس العلم احد الخوافز على بناء الانظمة الميتافيزيقية ، فإنه ليس الا حافزاً واحداً وحسب . لأن الاهتمام بالاخلاق لم يكن أقل من الاهتمام بالعلم ابداً . ولا بد ان نذكر هنا ان ابحاثاً اخرى ساهمت فى بناء الانظمة الميتافيزيقية كذلك . ففي القرن التاسع عشر مثلاً عندما نضجت الابحاث التاريخية واثارت اهتمام الفلاسفة اثاره العلم لاهتمامهم فى القرن السابع عشر ، اخذت الانظمة الميتافيزيقية تنشق عن الدراسات التاريخية . وهكذا اخذ الفيلسوف الميتافيزيقي ذو الذهنية التاريخية يبحث عن طبيعة التفسير التاريخي الحقيقية وربما استخلص من ذلك ان اسلوباً معيناً لتطور المجتمعات البشرية يشكلا المفهوم الرئيسي فى هذا التفسير . واذا أخذ بتطبيق نظريته خارج حدود التاريخ ايماناً منه ان هذا المفهوم بالذات - وهو بمعنى ما مفهوم التطور العقلى - يهيء لنا التفسير الحقيقي للكون بجملته ،

حصلنا على نظام شامل يشبه نظام هيكل^(١) Hegel . وقد رفع هيكل احد التفسير التاريخية المعينة الى مقام الاجلال بانخاذه اياه اساسا لنظامه وهو النظام الذي قلبه ماركس^(٢) Marx . رأساً على عقب وجعل عملية التطور مادية بدلاً من كونها عقلية [كما كانت عند هيكل] .

ويجدر بنا ان نذكر الآن ان الانظمة الميتافيزيقية الشبيهة بنظامي ماركس وهيكل قد تضمنت أشياء تتعلق بالسلوك البشري . غير ان الاهتمام بما تقتضيه النواحي الاخلاقية والعاطفية وحتى الجمالية في الحياة البشرية قد

يتخذ صوراً متباينة كثيراً ، فقد يظهر على صورة نزعة قوية الى وضع اساس شرطي . (ترانسندالي) لاخلاقية معينة تلزم فيها النتائج الاخلاقية المتعلقة بالتزاماتنا الاخلاقية من مقدمات ميتافيزيقية في طبيعة الحقيقة . وقد يتخذ صورة اهم رغبة في تهئية اساس شرطي للاخلاق عامة ، او قد يتخذ صورة رغبة للتدليل على ان الاشياء بطبيعتها تنطوي على كمال رفيع غير منظور ،

(١) هيكل G.W.F. Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١) من فلاسفة الالماني الاعمين ، اعتقد ان الكون يؤلف فكرة او روحاً وحدة هي العقل المطلق Absolute Mind وان الارواح والعقول الجزئية ليست الا اجزاء في هذا العقل المطلق الذي يتطور حسب قانون التناقض ويتجلى في نظام المجتمع ودينه وعلومه وفنونه واخلاقه وسائر مظاهره الاجتماعية .
(المترجم)

(٢) ماركس K. Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣) فيلسوف المانسي ومؤسس المادية الجدلية . رأى ان العالم يتكون من المادة المتحركة التي تتطور حسب قانون التناقض وان العوامل الاقتصادية اهم عوامل التطور في المجتمع البشري .

(المترجم)

وان الكون يتضمن اكتفاءً ذاتياً تاماً . وسينوزامل صالح يضرب به على الصورة الاولى لزعمه بأنه يستغل طبيعة الحقيقة للتدليل على الاكتفاء الذاتي التام الساري في الكون الذي هو في الوقت نفسه الفضيلة القصوى ، ويمثل كل منهما فيما سماه الحب العقلي لله ، ويعني به فيما يلوح لنا ادراك اسرار العمليات الطبيعية ادراكاً هادئاً ملؤه الاعجاب ، اما للصورة الثانية فكانت خير مثل يضرب به عليها لأنه قال : ليس عالم الطبيعة بما فيه من ذوات بشرية ومبادئ معرفة علمية الا مظهراً بحثاً على عكس عالم الحقيقة المتعالية او عالم الاشياء بالذات . فالحقيقة في رأي كانت ، تقوم وراء حجاب يستعصي على البحث العلمي اجتيازه ، ولكن احتجابها عنا يتضمن حصانتها من ناحية ويرفع من شأنها من ناحية اخرى . على ان الاتصال بالحقيقة ليس متعزراً علينا تماماً لأنها تتحدث الينا من وراء ذلك الحجاب دون ان تكشف لنا اسرارها بل تقدم الينا اوامر والتزامات اخلاقية . فالحقيقة تكمن في داخلنا على نحو غامض مبهم باعتبارنا كائنات عاقلة ولها دور بارز في وضع الصيغة العامة للقانون الاخلاقي الذي ينبغي علينا ان ندين له بالطاعة من حيث اننا كائنات بشرية اعتيادية . واخيراً يمكن ان تتمثل بلاييز الذي يجمع كثيراً من الاتجاهات العقلية في وحدة منسجمة بارعة . وفي الحقيقة متناقضة مثلاً بديعاً على الصورة الثالثة ولم يكن تفاؤله المشهور الذي افرغه في العبارة « كل شيء هو الى الافضل في افضل العوالم الممكنة كلها » سخيلاً بالقدر الذي تصوره فولتير (١)

(١) فولتير F.M. Voltaire (١٦٩٤ - ١٧٧٨) . (كاتب وفيلسوف ومؤرخ فرنسي)

Voltaire ضمن اطار نظامه العام . وقد نلتبس للناس بعض العذر في الاعراض عنه لخصوصية مقاييس هذا الفيلسوف في الكمال الاقصى وغرابتها ، لانه رأى انه بإمكانه ان يثبت - بأسلوب لاهوتي مرة ومنطقي بحث اخرى - ان الحقيقة لا بد ان تتضمن مزيجاً غريباً من اخصب المظاهر واكثرها تنوعاً وابسط القوانين العلمية . ومهما يكن الأمر فقد كان لاينسر شديد الاعجاب بهذا المزيج وكان عنده في غاية الثراء والجمال . ومهما يكن من سخط الناس على هذا النظام، فان واحدا منهم لم يقو على السخرية منه .

وقد آن لنا ان نقف هنا هنيئة فنذكر انه من الخطأ القول ان الميتافيزيقا تتبع دائماً من تلك المصادر المتقدم ذكرها - كالرغبة في اقامة الاخلاق على اساس شرطي (ترانسندالي) او الميل الى توجيه العلم توجيهاً سليماً او السعي الحثيث الى اعتبار علم معين المفتاح كحل الغاز الكون بجملته ، غير انه قد يكون للميتافيزيقا مصدر ايسر من هذا كله . فكثيرا ما يتأمل الفلاسفة في مسألة من المسائل الخاصة فيجدون انفسهم امام مشكلة مستعصية كمشكلة معرفة العالم المادي التي اشغلت اهتمام الفلاسفة رداً من الزمن مع كونها مشكلة ظاهرية . فمن ناحية لا يجد الفلاسفة - كغيرهم من الناس - في الاوقات الاعتيادية حرجاً في القول انهم يعرفون ان هذا الشيء او ذلك موجود وانه يتصف بكيك وكيت من الاوصاف مستدين في ذلك الى بيانات

واحد زعماء حركة انتوير الفرنسية التي مهدت للثورة الفرنسية واشترك مع ديدرو Diderot في جمع الانسكلوبيديا .

(المترجم)

الخواس . وهم في الحقيقة لا يجدون صعوبة في التفريق بين المواقف التي
 يصح ان نقول فيها بأننا نعرفها مثل « الحليب موجود على عتبة الباب »
 والمواقف التي لا يصح ان بدعي معرفتها . ولذلك كان من الطبيعي ان
 يعارضوا في شدة القول بأن هذه الادعاءات بالمعرفة وامثالها باطلة وينبغي
 رفضها . ولكنهم اذا امعنوا النظر وجدوا انفسهم امام اعتبارات فلسفية
 تصطرهم الى رفضها . ذلك انه اذا اردنا ان نحصل على معرفة حسية
 بالعالم المادي ، وجب ان تقوم هذه المعرفة على المظاهر التي نمثها بها الاشياء
 المادية اي على انطباعاتنا الحسية . ولكن اذا كانت انطباعاتنا الحسية تحتل
 الخداع وربما كانت خيالية ، فالقول انه يبدو لي وكأن هناك قناني حليب
 على عتبة الباب لا يضمن في الحقيقة وجود قناني حليب هناك ، بل ولا اي
 شيء اصلاً ، واذا جاولنا أن نزيل هذا الشك في حالة معينة بمزيد من
 الملاحظة ، فإن كل ما نتوصل اليه لا يعدو انطباعات حسية اخرى ، وكل
 واحدة من هذه الانطباعات مستهدفة للخداع الذي استهدفت اليه
 الانطباعات الحسية الاصلية ذاتها . وبهذا لا نصبح في حال أحسن من ذي
 قبل ، والواقع انه لا يمكن اعتبار انطباعاتنا الحسية دلائل أو اشارات يعول
 عليها في معرفة كنه العالم المادي لأنها لا يمكن ان تتخذ وسائل لاكتشافه
 والحكم عليه إلا اذا امكن ايجاد ارتباط بين انواع معينة من الادراكات الحسية
 وأنواع معينة من الاجسام المادية وهذا يتطلب اتصالاً بالاجسام المادية
 بصورة مباشرة لا غير مباشرة عن طريق الانطباعات الحسية . لكن هذا
 الاتصال بالاجسام المادية ممتنع تماماً وهذا يوضح لنا ان التأمل الفلسفي قد
 يؤدي الى انكار كل زعم بمعرفة العالم المادي . ونصطدم بذلك بمشكلة

مستعصية كالتي سعينا الى ايضاحها ، وهي التناقض الحاصل بين الامتناع عن رفض طائفة من القضايا التي نتقبلها في حياتنا اليومية وضغط حجة فلسفية لا تترك لنا الخيار فيما يبدو في رفض هذه القضايا . فالقضايا موضع الشك تقر غالباً (ان لم يكن دائماً) معرفة بهذا الشيء او ذاك ، وفي هذه الحالة تقوم الحجج الفلسفية بتقويض أركان هذه القضايا وذلك بوضع حد فاصل بين المظهر والحقيقة أو بين البينة وبين ما يظن أنا لذلك بينة .

لنسأل الان : متى يكون الجواب عن هذه المشكلة المستعصية ونظائرها ميثافيزيها^٩ احد هذه الاجوبة من دون شك هو الجواب الشرطي (الترانسندالي) الذي يتضمن فيما يتعلق بمشكلة العالم المادي الاعتقاد بإمكان معرفة الاجسام المادية مع امتناع ملاحظتها ، وتفسير امكان مثل هذه المعرفة بواسطة فرضية شرطية (ترانسندالية) او مبدأ يمكن قبوله فيما يظن بصورة مستقلة عن الخبرة . فمثلاً قد يستعين المرء بالمبدأ القائل ان الله صادق لا يتخدع او انه ينبغي ان يكون للظواهر اسباباً ومن ثم اذا استعان بعد ذلك بالمبدأ الآخر القائل انه ينبغي ان يقوم تشابه ما بين السبب والنتيجة (وبين الحقيقة والمظهر) أمكنه ان يضمن الحصول على معرفة ما بطبيعة الاجسام المادية وكذا معرفة وجودها . وعلى العموم فإن من صفات الفيلسوف الترانسندالي (المؤمن بالمثالية الشرطية) التسليم بموجودات عسية على الملاحظة وبمبادئ تأبى الاختبار التجريبي ، وهو بهذه الوسيلة يأمل ان يعيد الاعتبار على الاقل الى بعض القضايا التي كانت معرضة للاهمال .

اما جواب هيوم على هذه المشكلة فقد كان مختلفاً جداً عن الجواب

المتقدم . فقد رأى ان احكامنا المتصلة بالاجسام المادية في حياتنا اليومية تتضمن اغلاطاً على نحو منتظم ، ولذلك فلا يمكن التسليم بأية واحدة منها من الناحية العقلية ، وعليه فكل ادعاء بمعرفة صدقها لا بد وان يكون باطلاً او سخيفاً . على ان هيوم يضيف قائلاً ان الناس بطبيعتهم لا يستطيعون الكف عن اصدار هذه الاحكام في حياتهم اليومية حتى لو اكتشفوا هذه الاغلاط عن طريق التأمل والنظر في الحياة . وربما استطعنا ان نطلق اسم « الرفض » Rejector على كل من يرى انه من المحال المحافظة على الاحكام اليومية من التهافت بواسطة الحجج الفلسفية من الناحية العقلية . وفي هذه الحال لا يقل جواب الرفض ميتافيزيقية عن جواب الفيلسوف الترانسدالي .

وثمة طريقة اخرى احدث واقرب الى اذهاننا لمعالجة هذه المشكلة المستعصية الا وهي طريقة الردّ Method of Reduction . فقد اعتقد بعض الفلاسفة - في محاولتهم إزالة الحواجز بين الانطباعات الحسية والاجسام المادية - ان الاجسام المادية لا تعدو كونها مجموعات من الانطباعات الحسية وتعبير احدث رأوا انه يمكن من حيث المبدأ على الاقل ترجمة الجمل البسيطة التي نستخدمها في وصف الاجسام المادية الى جمل معقدة تتضمن الانطباعات الحسية التي يحصل عليها الناس أو بإمكانهم الحصول عليها في ظروف معينة . واذا سلمنا بهذا فلا صعوبة - فيما يزعم البعض - في القول ان الحقائق التي نستفيد منها من الانطباعات الحسية تشكل بيئة مقبولة للاحكام المتصلة بالاجسام المادية ، ذلك لأن القول بأن الحصول على انطباعات حسية معينة في ظروف معينة يمكننا من التوصل الى انطباعات

حسية مماثلة لها كثيراً او قليلاً في ظروف مماثلة لها كثيراً او قليلاً ، استنتاج ليس محل اعتراض من حيث المبدأ أكثر من استنتاج صفات امة معينة من صفات طائفة منها اتخذت نموذجاً لها . وعلى العموم اذا اخذ اصحاب طريقة الرد على عائقهم معالجة مسألة من نحو : « كيف يحق لنا ان ندعى المعرفة بأشياء (ولنرمز اليها بالسينات) في حين ان معرفتنا المباشرة قاصرة على اشياء اخرى (ولنرمز اليها بالصادات) » ، قالوا في الجواب ان الصعوبة تزول اذا سلمنا ان السينات ليست الا الصادات وان الكلام عن هذه السينات انما هو اسلوب آخر من الكلام عن الصادات . اما اعتبار طريقة الرد هذه ميتافيزيقية ام لا فأمر يتوقف على مدى ما يبذل من جهد في التأكيد عليها . فإذا رأى اصحاب نظرية الرد ان السبيل الوحيد لتجنب الاعتماد على فرضيات شرطية (ترانسندالية) من جهة والرفض القاطع لطائفة معينة من العبارات التي ترد على اللسان من جهة اخرى يتمثل في الرد على الصورة التي يقترحونها او شيئاً مما يشبهها فعندئذ ينبغي اعتبارها ميتافيزيقية . اما اذا ابدوا استعدادهم للنظر في الرد بحد ذاته دون التمسك بأنه السبيل الوحيد للحفاظ على البدهة السليمة فعندئذ لا تعتبر ميتافيزيقية . وفي هذه الحالة تفقد هذه المشكلات طابعها المستعصي وتخلو من الجدية وعندئذ تنزل الى مستوى المشكلات الظاهرية والوهمية ، وتغدو امراً يمكن حله دون اللجوء الى هذا الالوب الصارم .

ولنا ان نتساءل الآن : ما وجه الصلة بين اسباغ الطابع الميتافيزيقي على هذه الاجوبة بما توجب قوله في الميتافيزيقا ؟ الحق ان وجوهاً من الصلات تربط بينهما ، فأولاً ، لكي تنشأ هذه المشكلة المستعصية لا بد ان يحدث تغير

في مفاهيمنا وربما أحوج الأمر الى تبدل في طريقة نظرتنا المعتادة الى الاشياء . وقد حدث هذا التغير الذي أكد عليه وزدّم كثيراً بالفعل وثانياً ، يقوم هذا كله على تفضيل مقولة ذكرناها على نظيراتها . ولنضرب بافلاطون " Plato مثلاً على ذلك . لقد اعتقد هذا الفيلسوف بالوجود الحقيقي للموجودات الازلية الثابتة او الصور حفاظاً على امكان المعرفة العلمية غير انه وجد نفسه مضطراً الى رفضها ، ذلك لأن التأمل الفلسفي قد جعل معرفة الأشياء المحسوسة أمراً عسيراً لتغيرها الدائب وللخروج من هذا المأزق لم يجد افلاطون بداً من اقرار الصور والسمو بها فوق الموجودات ، وبذلك تحققت في رأيه المعرفة العلمية من ناحية موضوعها . ولكن القول بأن معرفة الأشياء المتغيرة مستحيلة - وهو اساس هذه المشكلة ربما نشأ من تفضيل فكرة على أخرى ، وبعبارة أخرى من الاحساس بأن الثبات (والاستمرار والاستقرار) افضل من التغير (والزوال والاضطراب) وانه لا يستحق اسم المعرفة الا ما يدور حول الأشياء الثابتة .

وبعد ، فقد تحدثنا فيما تقدم عن الميتافيزيقا فبينما بعض أصولها وصفاتها المميزة في ايجاز دون اشباع . ويترتب علينا الآن ان نوضح ذلك ببحث مفصل يتناول جوانب هذا الموضوع المختلفة . لقد ظهرت من خلال هذا

(١) افلاطون Platon (٤٢٨ - ٣٤٧ ق.م) فيلسوف يوناني وكان تلميذ سقراط وقد حفظ ارثه في علواته التي تربوا على الثلاثين . اعتقد ان جواهر الاشياء أو حقيقتها هي المثل أو المصدر ، وما العالم المحسوس الا انعكاسها .

(المترجم)

الوصف الموجز ملامح الميتافيزيقا العامة . ونذكر الآن ان الميتافيزيقا محاولة لاعادة ترتيب او تنظيم طائفة من الافكار التي تعيننا على التفكير في العالم المحيط بنا ، فنعقد صلات من التماثل بين أشياء كنا نراها مختلفة ونباعد بين أشياء كنا نعوها متماثلة ، ونرفع أفكاراً الى مقام الصدارة ونحط من قيمة اخرى او نهملها . فالميتافيزيقا على هذا ضرب من المراجعة في الافكار يهدف منها الميتافيزيقي الى تخطيط الفكر كله او جزء منه على اساس جديد ، ولا شك ان مثل هذه المراجعات تحصل في الغالب في ميادين خاصة من الفكر الانساني ، وهي لذلك السبب ليست مغامرات ميتافيزيقية ، ولكن المراجعة الفكرية التي يضطلع بها الميتافيزيقي - مع احتمال خدمتها للعلم او التاريخ او المثل الاخلاقية - تختلف دائماً عن المراجعات التي يقوم بها العلماء في الميادين العلمية البحتة . ذلك لأن الميتافيزيقي - فيما قال ارسطو يستخدم عدداً من المفاهيم العامة كالعرفة والوجود والذاتية والحقيقة المشتركة بين كل الدراسات الخاصة . ولهذا السبب تجنح المراجعة الميتافيزيقية الى الشمول وتقتضي اجراء تعديلات في المفاهيم كلها . ومع ان هذه المراجعة لا تتصل بميدان خاص ابداً ، فإن ذلك لا يعني انها لا بد ان تتمخض عن نظام كلي شامل ذلك لأنه - على الرغم من ان المفاهيم عامة لا خاصة - ليس نمة حاجة الى اعادة النظر فيها كلها دفعة واحدة والى ابعد الحدود . وهكذا نحصل على تلك الجوانب المضطربة المحلية التي ينشأ منها نتيجة تأثير المشكلة المستعصية والتفضيل تغير ميتافيزيقي طفيف في الخطوط العامة للفكر . ولكن الميتافيزيقي الامثل لا يقف عند هذا الحد ، بل يعيد رسم خارطة الفكر كلها بما اوتي من الجرأة والبراعة والخيال قل ذلك ام كثر .

الفصل الثاني

الانظمة الميتافيزيقية

METAPHYSICAL SYSTEMS

يُعدّ الوجود بحد ذاته مشكلة مستعصية . فقد ينعدم كل شيء ، وما المانع في ذلك ؟ ولا بدّ ان الناس نظروا الى الوجود على هذا النحو عندما امعنوا النظر في حقيقة الوجود المجردة واعتبروها سرّاً دفيناً محج تفسيره . ومن الملاحظ انه اذا اعتبرنا هذه الحقيقة سرّاً من الاسرار ، تعيّن علينا ان نلتمس تفسيراً للكون يقوم خارج حدود الكون نفسه . وبكلمة اخرى لزم ان نبحت عن تفسير للكون تفسيراً شرطياً (ترانسندالياً) - أي عن شيء يقوم وراء الوجود كله ويفسر سبب وجود الاشياء على الاطلاق . وقد علل كانت عدّة البحت عن مثل هذا التفسير لحقيقة الوجود غلطة لا تُعزى - كغيرها من الاغلاط الاعتيادية - الى الارتباك وقصور الفهم ويمكن خلاؤها بالحجج المباشرة ، بل تُعزى في رأيه الى ميل العقل البشري الفطري الى البحت عن شيء يكمن وراء حقائق الخبرة والى السعي الى ايجاد تفسير كلي لها في حين ان العلوم لا تهني لنا الا تفسيراً جزئياً لها . فمن شأن الخبرة البشرية ان تدفعنا الى البحت (عن شيء يقوم وراءها) ولكن دون جدوى ، وليس هذا البحت الذي لا طائل تحته مجرد ضعف سيكولوجي ، وسبب ذلك ان الخبرة البشرية لا تستطيع ان تفسر الاشياء الا تفسيراً شرطياً يتمثل في الصورة ! اذا حصل كذا وكذا وجب ان يلزم عن ذلك كيت

وكيت ، وهي الصورة التي يتخذها التفسير العلمي دائماً . فليس باستطاعتنا ابدا ان نتوصل في العلم الى تفسير غير شرطي يتخذ هذه الصورة ! يجب ان يوجد كذا كذا ، ولذلك يجب ان يلزم عن ذلك كيت وكيت ، ولا بد ان نشير هنا الى انه عندما نحاول ايجاد مثل هذا التفسير غير الشرطي للأشياء نحاول تطبيق مقولاتنا التفسيرية خارج حدود الخبرة الممكنة لأن كل خبرة يمكن تصورها هي خبرة بتتابع حوادث في الزمان المحدد فيه الحوادث المتقدمة الحوادث اللاحقة . وفيما نعلم لا يكون للخبرة التي لا تجري على هذه الصورة أي معنى ، بل تفقد كلمة « خبرة » كل دلالتها وإذا كان بإمكاننا أن نصف الكلمات لتكون منها جملا ونتكلم عن كائن موجود بالضرورة او عن حقيقة ازلية ، فليس بإمكاننا ان نؤكد أشياء ايجابية عن مثل هذه الحقائق الازلية كون ان نهذي هديافاً . وفي هذه الحالة تكون عباراتنا فارغة ، ويستوي ما نقره وما ننفيه عن هذه الحقيقة الازلية التي ينبغي ان تقوم وراء الخبرة الممكنة ، فيصح ان نقول كل شيء عنها ، ولا سبيل لنا حتى من حيث المبدأ الى التمييز بين صدق اقوالنا هذه وكذبها

وهذا معناه ان العبارات عن الحقائق الشرطية (الترانسندالية) جوفاء . وقد استدل كانت على ان استعمال اللغة بشكل معين وكذا الفكر يفترض وجود اساس او سياق معين ، ولا يكون لها اية دلالة اذا استخدمت خارج هذا السياق . والدليل على ذلك الصيغ اللغوية ذاتها ، فهي تبين ماهية ذلك السياق الذي لولاه لما كانت كذلك . وان القواعد النحوية في اللغات الخاصة تقوم على اساس اعمق وتعكس خصائص الخبرة البشرية العامة اي وضع اشخاص يشاهدون تعاقب الحوادث في المكان والزمان فمثلاً ينبغي

ان ندرك ان خبرتنا تنحصر باشياء موجودة في المكان وهي تحتفظ بهويتها في الزمان وان تغيرت صفاتها . وهذا يؤلف جزءاً من قواعد النحو اللازمة للتفكير كما يؤلف جزءاً من طبيعة الخبرة التي لا غنى لنا عنها . ولكن في الوقت نفسه ندرك حدود تفكيرنا وخبرتنا ؛ وهذا هو السر في اننا ننساق بدون أمل الى التأمل الفلسفي ونحاول - إن صح التعبير - أن نحطم تلك القيود (المفروضة على الفكر والخبرة) التي تشكّل الصورة الضرورية للخبرة كما نعرفها . وكل ما يستطيع الفلاسفة القيام به التغلغل الى تلك القواعد النحوية الاساسية التي تعكس مستلزمات التفكير والخبرة معا ، وعند ذاك ندرك السبب في انه لا يمكن ان تكون معرفتنا كاملة ابداً ولا يمكن ان نفرس الاشياء بما هي عليه تفسيراً مطلقاً غير شرطي بصورة مستقلة عن شروط خبرتنا .

ولا بد ان نشير هنا الى ان الميتافيزيقا الاستنتاجية - اي بناء الانظمة الميتافيزيقية القديمة - لم تستفّق من الضربة التي وجهها اليها كانت وليس بوسعها - فيما نرى - ان تستفيق منها . فقد عفى الزمن فيما نحسب على القول : ان بإمكان الميتافيزيقي ان يستخدم التفكير البحث لكي يستتج اصل الاشياء وتركيب الكون في خطوطه العامة على الاقل . على انه جرت محاولات لبعث الميتافيزيقا الى الحياة منذ ذلك الحين ، ومن هذه المحاولات مثلاً كتاب مكتاكرد^(١) Mc taggart طبيعة الوجود Nature of

(١) مكتاكرد J.E. Mc taggart (١٨٦٦ - ١٩٢٥) فيلسوف بريطاني كان استاد الفلسفة بجامعة كامبردج ، عني بدراسة هيكل واخذ بالفلسفة المثالية بوجه عام .
(المترجم)

Existence وكتاب صموئيل الكسندر^(١) Samuel Alexander المكان والزمان والآلة Space, Time and Deity ولكن لم تلفت هذه المحاولات انظار الفلاسفة الذين دأبوا على ايضاح مضامين حجة كانت وذلك اما بالمضي بها الى ابعد مما فعل كانت او بتحويلها وتعديلها على نحو ما . ولا نستطيع في هذا المقام الا أن نذكر محاولة متأخرة واحدة لبناء نظام ميتافيزيقي اخذت بنقد كانت (للميتافيزيقا) بنظر الاعتبار وهي لذلك ما زالت موضع اهتمام الفلاسفة وهي كتاب فتكنشتاين^(٢) Wittgenstein رسالة منطقية فلسفية Tractatus Logico Philosophicus المطبوع في انكلترا عام ١٩٢٢ . وهي محاولة غريبة جداً لبناء نظام ميتافيزيقي لأن المؤلف يبين ان نظامه يحول دون امكان قيام أية فلسفة منظمة ، فهي فيما يراه محاولة لتحقيق المستحيل ويورد اسباباً تنقض قيام الميتافيزيقا المنظمة لا تختلف عن تلك التي قدمها كانت . فيقول مثلاً : ليس

(٢) الكسندر S. Alexander (١٨٥٨ - ١٩٣٨) فيلسوف انكليزي اخذ بالاتجاه المثالي الجديد وصاحب نظرية التطور الانبثاقي المثالية ، اعتبر المكان والزمان المادة الأولى للكون وقرنها بالحركة ، وتؤدي طفرات كيفية غير مرئية في المكان - الزمان الى انبثاق المادة فالحياة فالروح والقيم الخلقية وما الى ذلك .

(المترجم)

(٢) فتكنشتاين L. Wittgenstein (١٨٨٩ - ١٩٥١) فيلسوف ومنطقي نمساوي واحد مؤسسي الفلسفة التحليلية . وكان استاذاً للفلسفة في جامعة كامبردج وله مؤلفات عدة كان لها اثر بعيد في الفلسفة المعاصرة

(المترجم)

باستطاعتنا ان نتحدث عن الاشياء بعبارات ولا نتساءل عنها باسئلة لا تنطوي الآ على مفاهيم شكلية (صورية) . من هذا يتبين انه لا يمكن ان نتساءل عن أصل الأشياء أو الحوادث الآ إذا حددنا تلك الأشياء والحوادث . والسبب في هذا ان الكلمات اشباه « شيء » و « حادثة » تدل على مفاهيم شكلية وتكون فارغة او جوفاء الآ اذا اضيفت اليها مفاهيم اختبارية . وحرى بنا ان نذكر هنا ان كانت هو الذي وضع هذا التمييز بين العناصر المادية والعناصر الشكلية في كلامنا وتفكيرنا ، وهو الذي اكد كذلك على انه اذا نظرنا الى المفاهيم دون اعتبار لامكان تطبيقها على الخبرة ، فإنها تكون فارغة . وقد ذهب فتكنشتاين في مؤلفه المتأخر ابحاث فلسفية Philosophical Investigations الى ابعاد الحدود في التخلي عن امكان قيام أية فلسفة منظمة . وفحوى كتابه هذا انه اذا نظرنا الى الاسئلة والعبارات في منأى عن سياق Context الحياة البشرية ، فإننا نهذي ونتكلم هراء . ولذلك لكي يكون للفكر واللغة معنى لا يكفي ملاحظة تعاريف الكلمات كما وردت في المعاجم ولا القواعد النحوية والقوانين المنطقية . فإن معنى اية عبارة كائنة ما كانت وكذلك قواعد النحوية ومنطقها يفترض وجود اساس ثابت من المصالح والاهداف البشرية المعتادة ومن الخبرة البشرية المعروفة . واذا حاولنا ان نستخدم اللغة الاعتيادية في سياق يفتر الى هذا الاساس الثابت من الخبرة الاعتيادية ، فأنا نتلاعب بالالفاظ الجوفاء . فمثلا اذا تحدثنا عن مشاعر وذكريات ارواح مجردة عن الاجسام ، فلا نسيء بالضرورة الى تعاريف المعجم للكلمات ولا الى قواعد النحو والمنطق ، وقد تكون الكلمات والجملة التي نستخدمها

باعتبارها كلمات وجمل لغوية سليمة من الاخطاء ، ومع ذلك فعندما تأمل في معاني الآماني والمشاعر والذكريات في هذا السياق غير الاعتيادي ، ترانا عاجزين عن تحديدها ، لأن معنى الكلمات « امل » و « شعور » و « ذكرى » الاعتيادي مرتبط باساس وجود الاشياء المادية على نحو يتعسر معه استخدام هذه الكلمات اذا لم يكن الناس اجساما مادية متميزة . وقد يكون في مقدورنا ان نسبغ معنى غريبا على هذه الالفاظ في هذا السياق الغريب ، ولكن لا نعرف ذلك المعنى ولا الشبه الموجود بينه وبين معنى هذه الالفاظ على ما جرت العادة به على استعمالها . ولا داعي لكى يتأمل الميتافيزيقي المنتظم في خلود الروح ، لكنه لا متاصل له فيما نعتقد من استخدام لغة تختلف عن اللغة الجارية في سياق ترفع فيه الحدود الاعتيادية المفروضة عن الخبرة البشرية . واذا سلم في اثناء تأملاته بأن لخبرة البشر باعتبارهم أشخاصاً موجودين في الزمان حدوداً وأبى تجاوزها ، فلا يمكن أن يكون ميتافيزيقيا، انما يكون عالما نظريا او ربما مؤرخاً نظرياً ولا بد من البحث عن الادلة والبيّنات التي تثبت تأملاته هذه . وهو ينتقل الى حقل ذلك الضرب من الميتافيزيقا الذي حمل عليه كانت بشدة وعنف اذا شرع في الكلام عن حقائق ازلية (لا زمانية) واستخدمها في تفسير الكون او اهداف الحياة البشرية . وعند ذلك يتوجب عليه - فيما اشار اليه فتكنشتاين - ان يكف عن الكلام ويلتزم الصمت او كما قال كانت : « ينبغي ان نسلم بأننا نحاول ان نفهم ما لا يمكن فهمه » .

ولا مناص ان نذكر بعد ان حدونا حدو كانت الى هذا الحد انه لم يدلل فيما يبدو لنا على عدم وجود الميتافيزيقا ، بل برهن على استحالة قيام الميتافيزيقا

الاستنتاجية والصورية (الترانسندالية) فقط . ولا يدور الخلاف هنا حول تسمية لفظية . فكثيراً ما قيل ان كانت نفسه كان فيلسوفاً ميتافيزيقياً ابدى استعداداً للتحدث عن شروط الفكر والخبرة الضرورية - الأمر الذي قد يسبغ عليه لقب الميتافيزيقي وان لم يحاول ان يستخلص نظاماً عن الحقيقة القصوى كما فعل مثلاً سبينوزا ولايبنتز . ومما هو جدير بالتنويه ان الفيلسوف الاختباري المعاصر بالمعنى الدقيق لن يتحدث عن الشروط الضرورية للفكر والخبرة ، لأنه يتوجب عليه عندئذ ان يتساءل كيف يمكن اقامة الدليل على صدق اقواله فيها . ولو انه كان شديد التمسك بالفلسفة الاختبارية ، لما جاز له ان يتحدث عنها بما له صلة بالميتافيزيقي من قريب أو بعيد . بل تعين عليه ان يحرص همه في بيان خلو الكلمات التي يستخدمها الميتافيزيقيون من المعاني . ولكن دعنا من التسميات . فقد قامت نزعة فلسفية تقليدية بدأت بأرسطو وعاشت طوال القرون الوسطى في كتابات توما الاكويني^(١) Thomas Aquinas وآخرين وبعثت الى الحياة عند ديكرارت وسبينوزا ولايبنتز ثم اصابها تغير كبير على ايدي كانت ، ولا تزال مستمرة في مؤلفات رسل^(٢) Russell الاولى وفي كتاب فتكشتاين رسالة منطقية فلسفية - الا وهي نزعة الفلسفة التنظيمية : اي محاولة الفلسفة

(١) توما الاكويني : Thomas Aquinas (١٢٢٥ - ١٢٧٤) فيلسوف ولاهوتي ايطالي . اصطنع الفلسفة في الدفاع عن المسيحية . ويعتبر فيلسوف الكنيسة الكاثوليكية . (المترجم)

(٢) رسل : B. Russell (١٨٧٢ - ١٩٧٠) فيلسوف ومنطقي انكليزي ساهم في تطوير المنطق الرياضي الحديث ، فطور منطق النسب (العلاقات) واحكم لغة المنطق

لتفسير تركيب المعرفة البشرية الضروري ووضع حدودها .

والفلسفة اذ تؤدي هذا الدور تتابع الدوران حول مفاهيم منظمة رئيسة معينة يعتمد عليها الفكر والمعرفة . وها هو ذا عدد منها - يوجد Exist وصادق True وذات Same ويمكن Possible ومحال Impossible . ويقيني Certain وارتبابي Uncertain ومماثل Like مغاير Unlike . والظاهر ان الفلسفة المنتظمة - فيما يشهد عليه التاريخ - لا بد ان ترجع الى هذه المفاهيم والى ارتياد العلاقات القائمة بينها . فهي اعم المفاهيم في لغتنا وتدخل في كل انواع الكلام . وعليه اذا تقصينا الظروف المختلفة لاستخدام هذه المفاهيم توصلنا الى رأي في مجال الكلام كله . ولكن اذا بلغ الطموح بنا مبلغه عد بناء الانظمة الميتافيزيقية ، فعندئذ لا نكتفي بهذا الرأي بل نحاول ان نضع حدوداً ونعين ما ينبغي ان يكون عليه لا ما هو بالفعل فقط . فمثلاً اذا وضعنا الشروط التي تجعلنا نثق من صدق عبارة من العبارات ، فإننا نكون قد شرعنا ببناء نظام ميتافيزيقي لأنه عندئذ نضطر الى اختيار ضرب معين من العبارات نعد موضوعاتها ممثلة لموجودات حقيقية . ومن ثم نقوم بتفسير كل شيء آخر بواسطة هذه الموجودات كائنة ما كانت . وعلى هذا النحو افضت نظرية المعرفة دائماً ، منذ عهد افلاطون ، الى بناء الانظمة الميتافيزيقية مباشرة . فقد استخدم كل من سبينوزا ولايبنتز هذه الحجة ، فاقاما انظمتها الميتافيزيقية قياساً على طبيعة المعرفة وطبيعة الصدق ؛

الرمزي . صنف عددا كبيرا من الكتب الفلسفية في مشكلات العلم الطبيعي ورأى ان مهمة الفلسفة تقتصر على تحليل وتفسير مبادئ العلم ومفاهيمه .

(المترجم)

وكذلك فعل رسل عندما نادى انه باستثناء الرياضيات لا نستطيع ان نتيقن
 الا من صدق العبارات التي تصف احساساتنا ، ولذلك استنتج ان المعرفة
 العلمية كلها ينبغي ان تعود في آخر المطاف الى نظام احساساتنا . ومع كل
 هذا نستطيع ان نردّ على اقامة الانظمة الميتافيزيقية الاستنتاجية ردّاً قاطعاً
 فنقول ان الفلاسفة في السنوات الثلاثين الأخيرة ادركوا بوضوح اكثر لماذا
 يقتضي ان تتغير شروط استعمال المفاهيم « يقيني » و « ارتيابي » - شأنها في
 ذلك شأن « ذات » و « صادق » و « يوجد » - باختلاق الحدود والعبارات
 التي ترتبط بها . والسبب في ذلك ان معنى أية عبارة يتحدد بتعيين الشروط
 التي نمكثنا من الوثوق في استخدامها . وعليه فلا يمكن ان تكون هناك
 طائفة واحدة من الشروط التي تجعلنا نتأكد من صدق العبارات دونما تمييز .
 وللسبب عينه يستحيل ان نجد معياراً عاماً واحداً للذاتية او للوجود او
 للصدق . ولا يمكن ان يحذو الفيلسوف اليوم حذو ديكارت وسبينوزا
 ولا يبرز في البحث عن مثل هذه المعايير العامة . ولذلك لا يحاول ان يقيم
 نظاماً ميتافيزيقياً على اساس الاستنتاج - اي استنتاج (النظام الميتافيزيقي)
 من طبيعة المعرفة الضرورية او من طبيعة الصدق الضرورية عندما نستخدم
 التفكير القبلي في تحديد طبيعتهما . ومع هذه الحملات ظل موضوع
 الميتافيزيقيا الاستنتاجية العام قائماً رغم حصول تغيير في طريقة معالجته التي
 لم تعد استنتاجية . وما زلنا نريد التوصل الى نظرة عامة في المعرفة البشرية
 من حيث مداها وأنواعها المختلفة وحدودها البعيدة بقدر ما يمكن تعيين تلك
 الحدود . وما زال التحري عن العلاقات القائمة بين اعم هذه المفاهيم -
 الوجود والصدق والذاتية وما الى ذلك - يهيء لنا رسم الخطوط العامة لخارطة

المعرفة البشرية وتعيين حدودها ، على انه ينبغي علينا - فيما أشار اليه كل من كانت وفكنشتاين - أن نبدأ تفسيرنا هذا بالمواقف البشرية الفعلية التي تحدد شروط تفكيرنا ولغتنا أي المواقف التي تمثل الناس وهم يشاهدون الأشياء ويعملون في مواقف معينة من الزمان والمكان ويشيرون الى الأشياء الخاصة في محيطهم لمعرفة هويتها وتصنيفها - ومحاولة إيجاد السبل لتغييرها . ومما تتميز به الانظمة الميتافيزيقية الكبرى - كنظام سينيوزا ولاينز - انها تنتهي في صورة عن المعرفة المثالية تعلم على هذه الحدود وتعتبر المعرفة الفعلية مقاربة للمعرفة الكاملة التي يستمتع بها كائن عاقل اذلي ينظر الى الأشياء من جميع زوايا النظر . وقد سلم برادلي F.H.Bradley الذي كتب بعد كانت في عصر الفلسفة النقدية ان المعرفة المثالية الكاملة لا تشبه المعرفة كما نفهمها الآن من قريب أو بعيد ، بل اشبه ما تكون بالشعور Feeling الذي يتعدم فيه كل تمييز بين الذات (العارفة) والموضوع (المعروف) ، وعندئذ لا يمكن ايصال المعرفة بواسطة الصيغ اللغوية ولا بواسطة مقولات (مبادئ) الفكر المحدودة ، بل تكون مباشرة وحسية وفيها يحصل اندماج العقل بالحقيقة . وقد يقع في ظن البعض ان هذه العبارات ليست الا عبارات صوفية خالية من المعنى اللهم الا باعتبارها أوصافاً لتجارب صوفية خاصة .

الا ان التاريخ يشهد ان الامر خلاف ذلك ، لأن استخدام هذه العبارات انما هو نتيجة لازمة عن اصطناع نهج عقلي بحث في البرهان . وهذا هو السر في أننا نجد هذه العبارات بكثرة في الانظمة الميتافيزيقية باعتبارها ذروتها أو الفصل الآخر فيها حتى عند أكثر الفلاسفة العقلين صلابة مثل سينيوزا الذي لم يصف تجارب صوفية ابداً . فإذا اردنا ان نفهم طبيعة الانظمة

الميتافيزيقية توجب علينا ان نعلم تكرار هذه العبارات فيها والا نكتفي بالقول مع وليم جيمس^(١) William James انها تعبر عن بعض الدوافع النفسية بل انها نتائج توصل اليها اصلب الفلاسفة العقلين مضوا بالعقل الواضح الى اقصى الحدود حتى انتهوا الى ما يشبه التصوف والغموض .

اما الحجة التي يتخذها الفلاسفة العقليون (في اقامة الانظمة الميتافيزيقية الاستنتاجية) فهي هذه : تختلف معرفتنا من حيث الشمول والموضوعية ، وتزداد حقيقة اذا ازدادت شمولاً وقل عكسها لزاوية نظر الذات العارفة الخاصة . وعليه ففي الذروة تكون المعرفة التامة شاملة شمولاً مطلقاً ولا تعكس زاوية نظر الذات العارفة أبداً . والحقيقة ان الذات العارفة لا تنظر عند ذاك الى الاشياء من زاوية نظر خاصة بل تعرفها كما هي في حقيقتها الموضوعية . والمعرفة البشرية العقلية بالغلة ما بلغت في شمولها لا تزال تعكس حدود الذات العارفة الضيقة . وعليه فلا تكون معرفة حقيقته بالاشياء كما هي في طبيعتها الموضوعية بل كما تبدو لنا ، وهذه المعرفة هي خير ما يمكننا الحصول عليه ، ولكنها لا تعد معرفة مثلى . تلك هي حجة سينوزا ونجدها في أشكال مختلفة في أغلب الانظمة الميتافيزيقية ذات الصبغة الاستنتاجية .

(١) جيمس ، وليم James William (١٨٤٢ - ١٩١٠) فيلسوف وعالم نفسي امريكي ، كان استاذاً للفلسفة في جامعة هارفرد ، وهو ابرز من بشر بالبرغماتية أو الفلسفة العملية Pragmatism .

(المترجم)

من الملاحظ ان هذه الحجة تنطوي على أمر بالغ الخطورة وهو العروج الى الذروة رأسا . وهو السبب في اقامة الانظمة الميتافيزيقية . اذ لما كنا نعرف ماهية المعارف الجزئية عن أشياء جزئية ، ومعرفة معارف جزئية أخرى عن أشياء جزئية أخرى ، وجب علينا ان نعرف ماهية المعرفة الكلية التي تستغرق كل شيء ، فكما اننا نستطيع ان نعرف سبب هذا الشيء أو ذاك ، كذلك نستطيع ان نعرف سبب الأشياء جملة وتفصيلا . وما يتميز به الميتافيزيقي هو استخدامه للالفاظ « كل » و « كل شيء » دونما تحديد . من هذا يستنتج انه اذا اردنا ان ننكر مزاعم الميتافيزيقي لزم علينا ان نقول ان المعرفة بطبيعتها محدودة ولا بد ان تظل دائما ناقصة ، وما ظل منها مجهولا لا حصر له . وهذا هو بيت القصيد لانه فيما نرى السبب الحقيقي لاستحالة قيام الانظمة الميتافيزيقية الاستنتاجية ، اذ ان فكرة المعرفة الكاملة لا معنى لها . فلا يؤخذ على الميتافيزيقا الاستنتاجية انها تناقض مبادئ المنطق ؛ ولاظهار استحالتها اداعي الى الرجوع الى احد المبادئ الفلسفة الخاصة كمبرأ التحقق القائل انه لا بد من التحقق من صدق العبارات كلها عندما يؤخذ « التحقق » بمعنى اصطلاحى خاص . انما نحتاج الى ان نلجأ الى الظروف التي قيلت فيها هذه العبارات وفهمت وعرفت انها صادقة أو كاذبة . واذا افترضنا زوال هذه الظروف ، لم يعد للكلمات « العبارة » Statement و « الفهم » Understanding و « المعرفة » Knowledge و « الصدق » Truth أية دلالة اما اذا وُفقنا في تعيين هذه الشروط ، استطعنا ان نحدد معنى « العبارة » و « الفهم » و « المعرفة » و « الصدق » . وما ينبغي ملاحظته هنا ان تحديد معاني هذه الالفاظ لن يكون مجرد اكتشاف لمعانيها ، بل يعني

قطع شوط عظيم في سبيل الوصول الى تلك النظرة العامة عن طبيعة المعرفة التي يسعى اليها الفلاسفة دائما ، ولكن لا بد من ان نبدأ بمواقف فعلية لاشخاص موجودين في بقعة معينة بالنسبة الى الاشياء الاخرى في المكان والزمان ويستخدمون رموزا Signs للإشارة اليها وتعيين هويتها والتساؤل عنها واصدار الاحكام بصددتها وتقدير التغيرات الممكنة في محيطهم . فاذا فرضنا ان الموقف هو على نحو ما وصفناه وان الحاجات هي على نحو ما ذكرناه ، امكننا ان نرجع الصيغ اللغوية والفكرية المتعددة الى تلك الحاجات الاولى . على ان كانت فيما يرى غير واحد من الفلاسفة المعاصرين كان مغاليا في يقينته في اختيار طائفة واحدة من المقولات أو العناصر الصورية في التفكير . وقد صدق من قال اننا نستطيع ان نميز العناصر الشكلية (الصورية) في تفكيرنا وكذلك الحاجات البشرية التي تعكسها عن بعضها البعض من نواحي مختلفة عديدة . وفوق هذا لا يمكن التسليم بوجود قواعد نحوية عامة واحدة تتألف من العناصر العامة المشتركة في القواعد النحوية في اللغات البشرية كلها . ولكن في الوقت الذي نسلّم فيه بذلك ، نرى ان كانت كان مصيبا في البحث عن مقولات أو عناصر نحوية قليلة تعتبر أهمها جميعا في محاولة اظهار وجود ارتباط محكم بينها . والارجح ان هناك مجالا لقيام أنظمة مختلفة توضع على سبيل الاختبار دون ان تزعم احداها انها نهائية أو قاطعة ولكن كلا منها تبرز خاصية واحدة من خصائص الكلام العامة عندنا . فلا داعي الآن لفلسفة منتظمة يقينية توصف بانها نهائية ولا مبرر لرجعة الميتافيزيقيا الى صورتها قبل أيام كانت يوم كانت تزعم انها تمثل طبيعة الحقيقة القصوى بصورة مستقلة عن المعرفة البشرية الفعلية .

على انه ربما يقال اننا اغفلنا ذكر شيء كان سببا أو على الأقل دافعا في قيام الانظمة الميئافزيقية العظيمة في الماضي الا وهو الدافع الاخلاقي moral motive ، ذلك ان الانظمة الميئافزيقية أدت الى رؤى اخلاقية جديدة ، لأن معرفة طبيعة الحقيقة معناه معرفة مكانة الانسان في الطبيعة ومن ثم تحديد أهدافه وواجباته الخاصة ومعناه (كذلك) كشف الطريق الذي يضمن خلاصه ، ويؤمن وصوله الى المعرفة التي تحرره من مصالحة ومشاغله الاعتيادية . والظاهر انه لا يمكن ان يتحقق شيء من هذا القبيل اذا حاول الفلاسفة التوصل الى نظرة عميقة عن أشكال المعرفة البشرية المحدودة المتعددة بما هي عليه ، ولذلك فلا يستتبعها أي شيء خاص بالسؤال : كيف ينبغي ان نحيا ، لأنه لم نتوصل الى رأي عن الحياة المثلى التي تنأى عن ظروف الانسان الاعتيادية ، بل توصلنا الى نظرة اوضح عن الحدود المفروضة على طرق تفكيرنا الفعلية . وهذا من شأنه ان يبديد الظلام الذي يحيق بطبيعة المشاكل الاخلاقية والمسائل المتعلقة بكيف ينبغي ان نحيا . لأن مشاكل الحياة والسلوك - من بين كل المشاكل - تتصف بأنها اكثرها تشويها اذا اغفلنا الحدود المفروضة على المعرفة الانسانية وافترضنا ظروفنا مثالية للحياة . فلا شك ان الانظمة الميئافزيقية العظيمة جعلت الناس يضلون سواء السبيل أحيانا بالقول ان هناك مرحلة من المعرفة تتلاشى عندها كل الاختلافات ويصبح الاختيار بين الخير والشر ميسورا وواضحا ولا داع له . ولكن كل معالجة للاخلاق لا تأخذ الحدود البشرية بما هي لا تستند فيما نرى الى أساس واه وحسب ، بل تُعتبر شرا كذلك ، لأنها تؤدي بالناس الى اهمال الافعال التي يترتب عليهم القيام بها للتخفيف عن مآسي الناس والآلام وعدها تافهة أو غير ذات بالٍ من الناحية الفلسفية ويشذ عن

هذا سينوزا اعظم فلاسفة الاخلاق الميافيزيقيين قاطبة . فقد حاول ان يبين ان السبيل الوحيد لاجتناب الشر والشقاء والانقسام (على النفس) هو الفهم العلمي والفلسفي التام لنظام الطبيعة ولعواطفنا التي تؤلف جزءاً من ذلك النظام . ولكنه في الوقت نفسه فسر لماذا لا نستطيع نحن البشر الا في لحظات متقطعة ان نتوصل الى المعرفة التامة ومن ثم الى الحرية الكاملة والرضى التام . ذلك ان للكائنات البشرية باعتبارها أشياء متناهية Limited في الطبيعة نظرة محدودة بالضرورة ، وينشأ تفكيرها وكذلك معرفتها في محيطها المباشر ، ولذلك فلا يستطيع ان يعكس العالم الطبيعي بجملته الا اذا انصب على أهم المميزات الجوهرية للنظام الطبيعي الذي تمثل في كل جزء منه . في هذه اللحظات - كما هي الحال في تفكيرنا الرياضي - نوجه اهتمامنا إلى الحقيقة الازلية ونتخلص من تأثير محيطنا الخاص ومن عواطفنا الخاصة .

ونستطيع ان ننمي ادراكنا بتركيز اهتمامنا على مميزات النظام الطبيعي الدائمة ، وعندئذ ربما استطعنا ان نلاحظ ان عواطفنا ومصالحنا الخاصة تمثل قوانين كلية ، وتذكر اهتمامنا الذي وجهناه الى ما حولنا من أشياء بصورة اوضح واكثر موضوعية ، ويصبح موضع عنايتنا على نحو اخر اكثر فلسفية . فحينئذ نفهم تماما لماذا نكره ونحب هذا الشيء أو ذاك ، فعندئذ نكون قد حولنا اهتمامنا عن هذا الشيء المعين على نحو ما تصورناه سابقا ، ويتغير موضوع اهتمامنا لأنه يتبدى لنا عندئذ على نحو مغاير تماما . ولذلك يمكن تطوير الانسان وتنميته بواسطة رياضة على التفكير العلمي والفلسفي في المشاكل على اختلاف أنواعها ومن ضمنها المشاكل الشخصية والسياسية . وكان الكتاب الوحيد الذي طبع في حياة سينوزا رسالة في

السياسة هي « رسالة لاهوتية سياسية *ractatus Theologico Politicus* نادى فيها بالتسامح الديني ودعا الى اقامة مجتمع متحرر ، ورأى ان غرض المؤسسات السياسية هو تهيئة المجال لممارسة حرية الفكر وهو الاطار الذي لا يستطيع الناس تنمية قواهم العقلية الا داخله . وكانت هذه الحياة بكل ما فرض عليها من حدود وهذه الظروف الحالية التي يعيشها الناس موضع اهتمام سينوزا وعنايته .

الفصل الثالث

الحجج الميتافيزيقية

METAPHYSICAL ARGUMENTS

لا يكتفي الميتافيزيقيون بعرض آرائهم بل يحاولون ان يقيموا عليها الحجة ويأتوا بالبراهين على صحة النتائج التي يتوصلون اليها . ولذلك فلا بد ان يتضمن البحث - اي بحث - في طبيعة الميتافيزيقا دراسة هذه الحجج ، لأن محاولة البرهان على النتيجة واقامة الحجة المنطقية على ان كيت وكيت ينبغي ان يكون كذا - تلك هي المحاولة التي تميز الميتافيزيقي عن المتصوف وعن الفيلسوف الاخلاقي وغيرهما الذين يقدمون أو يعملون على تقديم نظرة شاملة عن ماهية الاشياء أو ما ينبغي ان تكون ماهيتها .

ويمكن القول ان الميتافيزيقي بالمعنى الشام للكلمة لا يبدأ في الغالب بالبراهين ، بل قد يؤثر ان يبسط - بادئ ذي بدء - وجهة نظر عن العالم ومن ثم يبحث عن الادلة التي توضح افكاره بالشكل المطلوب . وفي هذا المعنى يمكن ان يقال ان الحجج التي يأتي بها الميتافيزيقي تبريرات أو تسويغات - طالما لا يعني ذلك ان هذه الحجج غير صحيحة وواهية ويجب اهمالها ، هذا ولا بد ان نذكر هنا ان كلمة « مبرر » أو « مسوغ » Rational جزء من كلمة « تبرير » أو « تسويق » Rationalization وان النظريات الميتافيزيقية تختلف عن الرؤى الحدسية البحتة في الحقيقة من ناحية تركيبها المنطقي والصحة المنطقية .

ومهما يكن الامر ، فإن وجه الشبه بين النظريات الميتافيزيقية والتبريرات بالمعنى النفسي التحليلي هو اعمق من ذلك ، وقد يجعلنا نتساءل ها الحجاج التي يقدمها الميتافيزيقي ذات شأن . فقد ظن عدد من الكتاب المتأخرين ان النظريات والحجج الميتافيزيقية ليست الا اعراضا لنوع من أنواع العصاب العقلي Intellectual Neurosis أو Mental Cramp^(١) - وهذا معناه ان الميتافيزيقي انسان ذو فكرة ثابتة راسخة يقوم بإسقاطها على العالم في صورة نظرية مشوهة تعقد عليها آمال كبيرة ، وهكذا اذ كان من العبث ان تحتاج رجلا مصابا بمرض نفسي ، فمن العبث كذلك ان تحتاج الميتافيزيقي ، با ينبغي ان ترىء كلا منهما من مرضه . لذلك رأى هؤلاء الكتاب انه يجب على الفلاسفة ان تضطلع بهذه المهمة ويترتب على الفيلسوف ان يحللا الميتافيزيقي الذي يعاني من كابوس النظريات الميتافيزيقية تحليلا نفسيا وان يستخدم وسائل التحليل النفسي للوصول الى جذور همومه متجاهلا الحجاج التي يتخذها لتبرير تلك الهموم ذاتها .

والظاهر ان هذه النظرية في أكثر صورها تطرفا تنطوى على مغالاة فاضحة ، فإنها تقر ولا شك بأنه لا يمكن قبول عدد كبير من الحجج الميتافيزيقية المهمة باعتبارها صحيحة (سليمة) ولا رفضها باعتبارها غير سليمة بالاستناد الى قواعد معينة متفق عليها بصورة عامة ، وان قيمتها أو خطئها يعود على الارجح الى مفهوم أو فكرة أساسية يحاول الميتافيزيقي ان يوضحها

(١) جاءنا هذا التعبير والفكرة التي تضمنها من فتكنشتاين . ويعتبر جون وزدم John Wisdom خبير من فصل هذه النظرية - أنظر مجموعة مقالاته الموسومة الفلسفة والتحليل النفسي - Philosophy and Psychoanalysis ، طبعة بلاكويل .

بواسطتها . ونقطة الضعف في هذه النظرة العلاجية هي انه اذا ذهبنا بها الى حد معين ، فليس ما يحول دون الذهاب بها الى نهاية الشوط . ومن هنا لا تعتبر الميتافيزيقا مرادفة للعصاب ، بل نوعا من أنواع العصاب . وبطبيعة الحال اذا نظرنا الى الميتافيزيقا على هذا النحو ، كان استخدام الفلسفة أو التحليل الفلسفي لمعالجة هذا العصاب مسعى لا طائل تحته - بل ان ما نحتاجه عندئذ هو التحليل النفسي الكلي ، لكن احدا لا يمكن ان يكون جادا في الاعتقاد بأن الميتافيزيقا ليست معقولة الى هذه الدرجة او انه ينبغي ان يوضع الفلاسفة تحت المعالجة عند الاطباء النفسيين . فالتحليل المطلوب هنا ليس تحليلا نفسيا بل فلسفيا ، ويجب الا ينصب على الميتافيزيقى نفسه بل على حججه التي ينبغي ان تعتبر محاولات بمعقولة جدية للبرهان على وجهة نظر معينة .

ويختلف الميتافيزيقيون عن بعضهم البعض في نواحي ثلاث هي : (١) مدى محاولتهم اقامة الادلة أو البراهين على ما يقررونه (٢) ، مدى دقة وقوة هذه البراهين (٣) ، مدى كون هذه البراهين جزءاً جوهريا من الفكر لا أداة لزخرفة الكلام . فإذا تناولنا اثنين من الميتافيزيقيين الانكليزي كمكتسارد وبرادلي مثلا وجدنا اختلافا ملحوظا بينهما : فبينما يستخدم الاول براهين قاطعة وحججا بالغة في التعقيد يكاد الآخر يشبر اليها اشارة خفيفة . زمهما تكن هذه الاختلافات ، فإن كلا منهما يعد ميتافيزيقياً اذا شأن يحاول ان يقيم الحجة على موقفه عن طريق استخلاص النتائج من مقدمات مفترضة .

ويستخدم المشتغلون بالامور النظرية كلهم الحجج ويستنتجون الاستنتاجات لانهم يعنون بالانتقال من طائفة من المقدمات أو مجموعة من

الحقائق الى نتيجة . ولكن لا بد من ان نشير هنا الى ان اولئك لا يستخدمون نوعاً واحداً من الاستدلالات والى ان استخلاص نتيجة من مقدمات يمكن ان يتحقق بحسب قواعد مختلفة . وقد قسم المناطق الذين وجهوا عنايتهم الى دراسة ضروب الاستدلال المختلفة وتصنيفها وجعلها صورية الى نوعين مختلفين هما ^(١) : الاستدلال الاستقرائي Inductive Inference و ^(٢) الاستدلال الاستنتاجي Deductive Inference . فاما الاستدلال الاستنتاجي فمن شأنه انه اذا سلمت بالمقدمات وجب عليك ان تسلم بالنتيجة ، والا ناقضت نفسك بنفسك - أي ان النتيجة تلزم بضرورة منطقية صارمة ، والحجج التي يستخدمها الرياضيون من هذا القبيل . واما الاستدلال الاستقرائي فلا ينطوي على مثل تلك الضرورة المطلقة ، بل لا يعد من يسلم بالمقدمات وينكر النتيجة مناقضاً لنفسه وان بدا سخيفاً ، وحياتنا اليومية طافحة بهذا الضرب من الاستدلال ، فإذا استعان امرؤ بتجاربه الشخصية وتوصل الى انه ليس من الحكمة ان يراهن الغرباء في سباق الخيل ، كان ذلك منه استقراء .

ان المثال المتقدم يبين صفة مهمة أخرى من صفات الحجج الاستقرائية ، تتمثل في ان من يتوصل الى نتائج مثل هذه يجد نفسه ميالاً الى التعميم - أي أنه يقر شيئاً مفاده : لقد راهنت الغرباء في سباق الخيل سبع مرات ، فاحتالوا علي في كل مرة ، ولذلك فيمن المحتمل انهم يحتالون علي إذا راهنتهم في المرة القادمة او في أية مرة . « ان حجته هذه صحيحة الى هذا الحد ، ولكن يجوز ان يكون على خطأ في استخلاص النتيجة ، اذ يمكن ان يكون الغريب الذي يراهنه في المرة القادمة نزيهاً دائماً ، وهذه هي احدى

الصفات العامة التي تتميز بها الحجج الاستقرائية . اذ لما كانت وظيفة الحجج الاستقرائية الانتقال من حقيقة واقعية مسلم بها الى عبارات اوسع مدى أو مغايرة على الاقل ، فإن النتائج التي تفضي اليها لا تكون على نحو ما الا احتمالية Probable دائما . لأن الاستدلال الاستقرائي يستند الى التجربة ، ومن الممكن دائما ان نتصور بطلان النتيجة مهما بلغت الدقة في ضبطها .

اما الحجج الاستنتاجية ، فهي على جانب أكبر من التعقيد . فإنها قد تؤدي الى نتائج ضرورية و يقينية في وقت واحد . ولكن هذه النتائج لا تتصف بالضرورة واليقين الا اذا كانت المقدمات يقينية كذلك ، والسبب في ذلك ان الحجة الاستنتاجية لا تفيدنا في النتيجة أكثر مما هو متضمن أو منطوق في المقدمات واذا كانت المقدمات احتمالية فقط ، غدت النتيجة احتمالية كذلك . على ان النقطة المباشرة التي تتعلق بموضوع هذا الفصل هي ان الحجج الاستقرائية لا تستطيع ان تؤدي الا الى نتائج اختبارية احتمالية .

والآن نتساءل : ما صلة الحجج الميتافيزيقية بهذين النوعين من الحجج ؟ لأن البحث في هذه الصلة لا بد ان يساعدنا على الاقل على استجلاء الحجة الميتافيزيقية من حيث ما يدخل في مضمونها وما يخرج عنه في الوقت نفسه . فأولا نذكر ان الميتافيزيقيين لا يصدر عن استدلال استقرائي مباشرة ، فلا يقولون أشياء مثل « ان كيت وكيت صادق في هذه الحالات ، ولذلك فمن المحتمل ان يكون صادقا دائما » فلا يجوز مثلا ان نقول ان الميتافيزيقي توصل الى النتيجة : « ان الناس احرار » عن طريق الحجة القائلة « ان كل الناس الذين شاهدناهم احرار ، وعليه فالناس عامة

أحرار، كما يستدل المرء على أن الناس عامة ذوو حواجب، من العبارة «أن الناس الذين شاهدناهم ذوو حواجب». ولا غرابة في ذلك فإن سبق معرفة النتيجة الميتافيزيقية أو ضرورتها تحولان دون تطبيق مثل هذا النهج ولا داعي لاسنادها الى الخبرة.

على انه مما ينبغي الالتفات اليه هنا ان بعض الحجج التي يستخدمها الميتافيزيقيون تشبه فيما يبدو الاستدلالات الاستقرائية بشكل ملحوظ. ويمكن ان نضرب مثالا على ذلك بالحجة اللاهوتية القائمة على النظام والتي عرفت في يوم ما بإسم ساعة بيلي Paley's Watch، ومؤداها باختصار اننا اذا عثرنا على ساعة أو آلة معقدة أخرى مصادفة، وجب ان نستنتج ان شخصا ما قد صنعها. وبما اننا نجد في كل مكان آلات طبيعية معقدة ونلاحظ وجود علاقات معقدة بين العمليات الطبيعية وجب ان نستنتج بان صانعا Maker قد صنعها. على ان هناك صعوبات عامة عديدة في قياس النظرير او حجة التشبيه Argument from Analogy هذه، لكن المهم هنا انها فيما تبدو نوع من الحجج الاستقرائية. لان استدلال بيلي جرى على هذه الصورة: «حيثما عثرنا على آلات معقدة في الماضي، وجدنا لها صانعا، ولذلك نستطيع في هذه الحالة ان نستنتج وجود صانع». لكن اعتبار هذه الحجة استقرائية يجعلها عاجزة عن تحقيق غرضها، لأنها بذاتها لا تستطيع ان تؤدي إلا الى نتيجة استقرائية، ولذلك فإن العبارة التي تقرر وجود الله والتي تؤدي اليها هذه الحجة فيما يزعم لا تكون في هذه الحالة افرضية شبه علمية Quasi Scientific Hypothesis ولا يتضمن ضدها فيما رأينا تناقضا. بل انه ممكن من الناحية المنطقية. من هذا يتبين انه اذا سلم المرء

بوجود الله بالاستناد الى مثل هذه الحجة وجب عليه ان يسلم انه من الممكن على الأقل ان يكون الله غير موجود . وعلى العموم من يؤمن بوجود الله لن يسلم أنه من الممكن على اي نحو ان يكون الله غير موجود ، بل يصّر على انه لا بد ان تكون العبارة التي تؤكد وجود الله ضرورية بصورة مطلقة وانه واجب الوجود . نستنتج من ذلك ان ساعة بيبي فيما تبدو لا تمثل الحجج الميتافيزيقية اطلاقا ولا الحجج على وجود الله ، بل هي بمنزلة استدلال يقوم فوق العلم Super-Scientific Inference .

ويمكن كذلك ان نعبر عن المكرة القائلة بان الميتافيزيقي لا يستخدم الحجج الاستقرائية بالقول ان مفهوم الاحتمال Probability لا شأن له في النتائج الميتافيزيقية . لأن الاستدلالات الاستقرائية - كما لاحظنا سابقا - تتميز بكونها احتمالية دائما ، في حين ان النتائج التي يتوصل اليها الميتافيزيقي لا تكون فيما يرى هو احتمالية ابداء بل واجبة . وهنا نجد للمرة الثانية ما يشذ في الظاهر عن هذه القاعدة . فمثلا نجد رسل في مؤلفاته الاولى يقول أشياء من هذا القبيل : « تحاول بعض الحجج ان تبرهن على عدم وجود العالم الخارجي ، ولكن لما كانت هذه الحجج غير قاطعة وكان لدينا كذلك ميل طبيعي للاعتقاد بوجود العالم الخارجي ، فمن المحتمل ان يكون الايمان بوجوده اسلم من نكرانه » وقد استخدم البرفسور برود^(١) Broad واخرون

(١) برود C.D. Broad (١٨٨٧ -) فيلسوف إنكليزي واستاذ الفلسفة بجامعة كامبردج وينتمي الى مدرسة التحليل الفلسفي ، وله مؤلفات عدة في نظرية المعرفة وفلسفة العلوم والاخلاق وما بعد الطبيعة .

(المترجم)

مثل هذا الأسلوب ، ففارقوا احتمال القضايا الميتافيزيقية أحدهما مع الأخرى .

هذا المثال يحتمل ملاحظتين . فأولا ، كانت هناك من دون شك محاولة لدمج الفلسفة بالعلوم الطبيعية ، ولذلك اعتبرت نتائجها احتمالية . ففي هذا القرن سعى فريق من الفلاسفة الذين اعجبوا بما حققته العلوم (من انتصارات) وامتعضوا من الميتافيزيقا التقليدية الى تطبيق الطرق العلمية على الفلسفة ذاتها فانتهوا الى نتائج تشبه النتائج الميتافيزيقية التي تبدو عليها صفة الاحتمال الاستقرائي . على انه اذا درسنا هذه الحجج دراسة دقيقة ، امكنا فيما نعتقد ان ندرك انها ليست حججا استقرائية مباشرة شأنها في ذلك شأن حجة بيلي ، لأن الالفاظ التي تستخدمها مثل « الاحتمال » و « النظرية » لا تعدو كونها زخرفا لحجة فلسفية تعتمد على التصورات العقلية . يضاف الى ذلك ان هؤلاء الفلاسفة لا يمثلون الميتافيزيقيين ، وان كانوا يخوضون في الميتافيزيقا .

وثانيا ، قد يقدم سبب آخر يختلف عن السابق يفسر لماذا قال رسل - مثلا - ان النتائج الميتافيزيقية احتمالية . فقد وجدنا من قبل ان احد الاسباب التي تجعلنا نقول بان النتيجة في حجة من الحجج ينبغي الا تكون فيما نعتقد إلا محتملة هو كونها حجة استقرائية . وحين يرغب الفيلسوف في الاشارة الى ان الحجة الاستقرائية بطبيعتها اختبارية يقول انها محتملة . فإذا كان هذا ما يقصده رسل ، كانت حجته من دون شك استقرائية . ولكن هذا سبب واحد فقط من جملة اسباب كثيرة اخرى تفسر لماذا يقال ان الحجة محتملة . واجدها هو ان مقدمات الحجة ليست بذاتها إلا محتملة بالمعنى الاعتيادي

كما هي الحال عندما يقال : من المحتمل ان يفوز الحصان الذي اخترته في السباق غدا . وهذا طبيعي . لأنه اذا كانت المقدمات محتملة فقط ، لم تكن النتيجة التي نستخلصها منها حتى في الحجة الاستنتاجية الأ محتملة . وكما لاحظنا سابقا لا تحتوي النتيجة في الاستنتاج اكثر مما تحتويه المقدمات وعليه اذا اعتقد المرء ان من المحتمل ان يفوز الحصان الذي اخترته في السباق غدا استطاع ان يستنتج انه من المحتمل ان يفوز اي حصان آخر ، ولكن في اية حال لن يضمن نتيجة أكيدة بذاتها لأن مقدماته ليست الا احتمالات . وهذا يفسر لنا لماذا ينبغي ان توصف حتى الحجج الاستنتاجية بالاحتمالية . لكن اذا رجعنا الى حجة رسل وجدنا انها ليست من هذا الطراز ، لأن مقدماته - وهي اننا نؤمن بوجود العالم الخارجي - ليست بذاتها موضع شك وريبة من حيث هي تنبؤات عن السباق غدا .

على انه يمكن أن نقول ان حجة ما من الحجج محتملة على نحو آخر قد يلقي ضوءا اكثر على حجة رسل . ففي دراسة حجة قد لا نغنى بكون المقدمات والنتيجة صادقة او كاذبة و يقينية او محتملة بمقدار ما نغنى بلزوم النتيجة من المقدمات - بكلمة اخرى ربما لا تعدو رُغبتنا معرفة صحة الحجة او سلامتها Validity . وجدير بنا ان نذكر هنا انه ليس لصحة الحجة درجات : فاما ان تلزم النتيجة من المقدمات او لا تلزم عنها ولا ثالث . ولا معنى للقول ان النتيجة « تكاد » تلزم - او انها تلزم « بدرجة كبيرة او صغيرة » من المقدمات . ولكن ربما كان الباحث غير واثق غالبا من صحة الحجة ، لتعقد المقدمات او غموضها ودقة مراحل الاستدلال وما الى ذلك بحيث قد يشك في لزوم النتيجة عن المقدمات او عدمه . وفي مثل هذه

الحالات قد يعرب عن شكوكه هذه بالقول : « من المحتمل » ان تلزم النتيجة عن المقدمات او « ربما » لزمت عنها .

ولا شك ان هذا الضرب من الشك ومن ثم ذلك النوع من الاحتمال قد يقع على الحجج الاستقرائية والاستنتاجية على حد سواء : فقد تكون مسألة رياضية مثلاً من التعقيد والغموض بحيث ان غاية ما يستخلص منها القول : « من المحتمل اننا توصلنا الى النتيجة بحجة صحيحة » . وربما كانت حجة رسل وبعض الحجج الميتافيزيقية الأخرى التي تنطوي على مفهوم الاحتمال من هذا النوع من الحجج . فلا يقال : ان هذه الحجج محتملة لأن الفلاسفة يشكون في صدق النتيجة او المقدمات ، بل لأنهم في شك من أمر العلاقة بينها - اي لأنهم على غير يقين من لزوم النتيجة لزوما حقيقيا من المقدمات . ويمكن ان تقع هذه الشكوك واشباهها - فيما رأينا من قبل - على الحجج على اختلاف انواعها ، واذا كان الفلاسفة يكتفون بالقول ان النتائج التي يتوصلون اليها ربما لزمت من مقدماتها ، فذلك لا يبين نوع تلك النتائج ولا طبيعة الحجج التي يستخدمونها .

مهما يكن الأمر ، فإن حكما واحدا يبدو صحيحا هو ان الحجج الميتافيزيقية ليست - فيما يلوح - استقرائية . واذا كان الأمر كذلك ، فهل هي اذن استنتاجية ؟

الظاهر ان الميتافيزيقي يؤثر استخدام الاستنتاج كوسيلة لبلوغ غاياته ، ذلك لأن الحجج الاستنتاجية تستطيع على الاقل ان تقضي الى نتائج ضرورية يسعى اليها هو ، ويقال عادة ان الميتافيزيقيين يسعون الى استنتاج

طبيعة الحقيقة ، الامر الذي قد يوحي الى ان عمل الميتافيزيقي استنتاجي صرف . ولنا فيما يبدو في الانظمة الميتافيزيقية العظيمة التي ابتناها بعض الميتافيزيقيين ما يؤيد ذلك ، فهي تزعم بأنها تكشف علاقات استنتاجية تقوم بين جوانب الحقيقة .

واذا قصرنا عمل الميتافيزيقي على القيام بالاستنتاج المنظم ، اغفلنا مسألة بالغة الاهمية ، ذلك ان كل استنتاج لا بد ان يبدأ بأمر وينتهي بأمر آخر [مستخلص منه] : اي لا بد من مقدمات ونتيجة . وعليه لا بد ان يتم ذلك في سلسلة او نسق ما تنصب فيه الاستنتاجات ، فتبدأ من أمر هو اول السلسلة كلها . وفي النسق المنطقي الشكلي (الصوري) نبدأ السلسلة بالبدهييات التي لا يرقى اليها الشك بالنسبة الى ذلك النظام (النسق) بوصفها اولية لم تستخلص من شيء آخر . ويمكن التوصل الى عدد عديد من السلاسل (الانظمة) الشكلية البحتة : ولكل منها بدهيياتها الخاصة ، وللباحث ان يختار منها ما يحقق اغراضه الخاصة . وعلى الضد من هذا كله لا يقدم الميتافيزيقي الينا انظمة نختار منها ما نشاء ، بل يسعى الى جعل عباراته في الوقت نفسه ذات محتوى من ناحية وصادقة بالضرورة من ناحية اخرى . على انه اذا اراد ان تكون النتائج التي يتوصل اليها ملزمة ، وجب ان تكون البدهييات التي يستنتج منها تلك النتائج ملزمة كذلك . ولما كان البرهان على البدهييات عسيرا في ذلك النظام . تعين على الميتافيزيقي ان يصطنع طريقة ما لتحقيق هذا الغرض . والحقيقة ان الميتافيزيقي يحاول ان يبرهن على ان لا مناص من قبول بدهيياته لأنه لا سبيل له غير ذلك . وما الحجة الميتافيزيقية في اعمق معناها الا تلك الوسيلة التي يستخدمها

المتافيزيقي حين يحاول حمل الناس على التسليم ببديياته .

وقد سعى أصحاب الانظمة العقلية في القرن السابع عشر باساليب مختلفة الى اقامة انظمتهم على بدييات ملزمة . ولكنهم عمدوا على العموم الى البحث عن بدييات صادقة بذاتها لا تحتاج الى دليل على الاطلاق . وكانت حججهم الميتافيزيقية في هذا المقام قائمة على قضايا لا تحتاج الى برهان مطلقا . فديكارت مثلا اصطنع منهج الشك المنظم Systematic Doubt لمحو الحقائق التي كان يؤمن بها حتى توصل الى حقيقة لا يدنو اليها الشك وهي قوله : « انا اشك » ومنها استدل قوله : « انا موجود » فانقل اليه مباشرة . اما انه اعتبر هذا الانتقال استنتاجا بحثا ، فأمر لا يزال غير واضح لدينا . وعلى اية حال فقد رأى ان نور العقل الخالص اثبت كون العبارة « انا اشك » فوق كل شك .

غير ان الفلاسفة الذين يبتنون أنظمة ميتافيزيقية لا يلجأون جميعا الى أساليب بسيطة كهذه في سياقة بديياتهم . وليس الميتافيزيقيون كلهم أصحاب أنظمة ميتافيزيقية . فقد تبين انه لا داعي لذلك . لأنه اذا امكن استخدام حجة ميتافيزيقية لحمل المرء على التسليم بعبارة تتخذ فيما بعد بديية في نظام (ميتافيزيقي معين) ، امكن استخدامها كذلك لإكراه المرء على التسليم بالعبارة حتى وان لم تتخذ بديية . بل حتى الميتافيزيقيون الذين لا يعينهم من أمر اقامة الانظمة الميتافيزيقية الشاملة شيء يحاولون ان يستخدموا حججا بناءة للتدليل على ان كيت وكيت (مما لا نتوقعه على العموم) ينبغي ان يكون كذلك . وفي الغالب يستخدمون حججا هدامة للبرهان على ان كيت وكيت (مما نتوقعه على العموم) لا يمكن ان يكون كذلك . ونبين

العلاقة بين هذين النوعين من الحجج بعد قليل .

وحين قارنا فيما تقدم بين الحجج التي يستخدمها الميتافيزيقيون من جهة والحجج الاستقرائية والاستنتاجية من جهة أخرى افترضنا وجود نوع محدد من الحجج الميتافيزيقية . غير ان الحجج الميتافيزيقية متنوعة كالعبارات الميتافيزيقية المتنوعة . وهذا الحكم لا يمنع من ايراد ملاحظات عامة عليها تصف هذه الحجج في خطوطها العامة أكثر من ذكر صفة واحدة من صفاتها الاساسية . وعلى أية حال بينا من قبل ان الحجج الميتافيزيقية تختلف عن الحجج الاستنتاجية والاستقرائية على حد سواء . وهذا في رأي بعض الفلاسفة من امثال الوضعيين المنطقيين كاف للحد من الحجج والعبارات الميتافيزيقية التي يعتبرونها لغواً . ولكن هذا الوصف العام لا يفيدنا علماً بالميتافيزيقيين هوجهد من يحاول ان يهدم في ضربة واحدة ما بين الاشياء من فوارق واختلافات . لقد كان اتجاه هؤلاء الفلاسفة المناهضين للميتافيزيقيين يشبه اتجاه رجال الحرب الذين يقسمون الناس الى محاربين وغير محاربين . ومثل هذا التقسيم حتى من الوجهة الحربية له مساوئه لانه لا يميز في جملة المحاربين بين العاجزين من الناحية البدنية والمعارضين للحرب . والميتافيزيقي - بالنسبة الى معيار المعنى الوضعي - اشبه بالمعارض منه بالعاجز ، لانه يوجه همه كله الى معارضة الوضعي . وكما ان للمعارضين للحرب أصنافاً مختلفة ، كذلك الميتافيزيقيون والحجج الميتافيزيقية أنواع مختلفة أيضاً . ولا يمكن فهم ذلك الا بدراسة أمثلة فردية .

لا يتسع المجال في هذا الفصل لأكثر من مثال واحد منها فقط . ومع ان هذا المثال واحد من جملة أمثلة متعددة ، لكنه أساسي ومألوف الى حد اننا

نأمل ان نحصل منه على بعض الدروس العامة .

نأخذ الادراك الوهمي (الوهم الادراكي) Perceptual ILLusion مثالا على ذلك ، فنقول : نجد من حولنا أشياء كثيرة كالاشجار والمناضد والرجال وما الى ذلك . وبين الغينة والغينة نخطف في عملية ادراك هذه الاشياء ونحسب شيئاً نراه شيئاً آخر ليس هو في الحقيقة كذلك . وهكذا فقد نتوهم ونعتبر حذاءً أسود رأيناه في غسق الليل قطعة صغيرة . وحينذاك يأتي دور الفيلسوف . فقد يكون اهتمامه منصبا على عدد من المسائل مثل « ماذا نعرف حقاً ؟ » و « هل يمكن اعتبار الادراك الحسي مصدراً للمعرفة ، وما مدى مكان الاعتماد عليه في ذلك ؟ » و « ما الموجود حقاً ؟ » وما الى ذلك . ومهما تكن المسألة الخاصة التي يعالجها فإن استدلاله الذي يبدأ من الادراك الوهمي يجري على هذا النحو : « لقد اخطأت عندما خُلتَ ذلك الحذاء قطعة » . وهذا يعني انه لا خلاف جوهرى بين الخبرة التي حصلت عليها بالفعل في اللحظة التي رأيتَ فيها حذاء في غسق الليل والخبرة التي كان يمكن ان تحصل عليها لو انك رأيتَ قطعة في تلك اللحظة . ولم يظهر الخلاف بينهما الا فيما بعد أي حين نظرت اليه من قريب أو احدثت صوتاً أو ما الى ذلك . ومن البين انه لا يقوم خلاف جوهرى بين الخبرتين ، لأنه لو صح ذلك لأدركته ولما توهمت شيئاً معينا غيره ، واذا سألنا الآن : ما الخبرة التي حصلت عليها ؟ كان الجواب انها ليست رؤية قطعة لإمتناع وجودها هناك وهي ليست مجرد رؤية حذاء قديم كذلك . والسبب هو انه قد رأينا من قبل ان هذه الخبرة لا بد وان تكون تلك التي كان الحصول عليها ممكناً لدى رؤيتك قطعة في الحقيقة ، والا لما كان بمقدورك ان تتوهم فتحسب

الحذاء قطعة . وإذا كان في استطاعتك ان تنال هذه الخبرة عند رؤية قطعة في الحقيقة ، فلا يمكن ان تكون رؤية حذاء في الحقيقة ، لأنك اذا رأيت قطعة فمعنى ذلك انك لا ترى في الحقيقة حذاء ، من هذا نستنتج ان الخبرة التي تحصل عليها في كلتا الحالتين ينبغي ان تكون خيادية ما بين رؤية قطعة في الحقيقة ورؤية حذاء في الحقيقة . فهي مشتركة بين الإثنين وأقل من كل منهما . بعد هذا يواصل الفيلسوف قوله . . انه « لا بد ان يكون الحصول على الخبرة البصرية أهم من رؤية الاجسام الحقيقية ، لأنه يمكن ان يحصل المرء على خبرات بصرية دون ان يرى في الحقيقة شيئاً معيناً ، ولكنه لا يستطيع ان يرى شيئاً دون ان يحصل على خبرات بصرية . » .

هذه هي الحجة القائمة على الوهم الحسي في احدى صورها المتعددة . وتتمثل في خطوتين تحددان الحجج الميتافيزيقية : الاولى هدامة والاخرى بناءة . تتناول الخطوة الهدامة اظهار كذب ما درجنا على اعتقاد صحته . كاعتقادنا رؤية الاجسام في المثال المتقدم . وقد لا نستغرب ذلك لأنه اذا كان من الخطأ ان يزعم المرء ان ما يراه انما هو جسم مادي ، فقد يصح مع ذلك اننا احيانا نرى أجساما مادية ، على ان الخطوة الهدامة تمضي ابعد من ذلك ، لأن الميتافيزيقي لا ينكر الفرق بين كونه محدوعا وكونه غير محدوع وحسب ، وانما يقيم الدليل على انه لا وجود لهذا الفرق الذي نتوهمه بينهما . ذلك لأن هدفه بيان ان التأمل في حالات الادراك الوهمي يمكننا من القول ان حالات الادراك الصحيح تختلف هي الاخرى عما نظنه ، كما وان خبرة المشاهد البصرية - وهي خاصة به فيما يرى الميتافيزيقي تلعب دورا في هذه الحالات .

ومن هنا تبدأ الخطوة البناء من الحجج الميتافيزيقية التي تتميز في ان منهج الهدم يشير الى الاشياء التي ينبغي ان تحل محل الاشياء المتهافة . من هذا نستدل ان الحجة الواحدة بعينها - أو على أقل تقدير الحجة المستندة الى حقائق الخبرة ذاتها - قد تتخذ صوراً مختلفة لكي تلائم الاغراض المتعددة للفلاسفة المختلفين . والواقع ان الصورة التي بسطت فيها الحجة القائمة على الادراك الوهمي (ولا مناص من اختيار احدى صورها المتعددة) تستطيع وضع اسس ميتافيزيقا اختبارية عن طريق استخدام مفهوم « فكرة » Idea أو « احساس » Sensation .

ويمكن ان نستخدم الحجة ذاتها لتحقيق أهداف تختلف كل الاختلاف عن أهداف الميتافيزيقي الاختباري - ولنضرب بافلاطون مثلاً على ذلك - فقد سلم افلاطون بالمرحلة الاولى من الحجة واستدل منها انه لا بد ان تكون عقائدنا عن العالم المادي شخصية وزائلة وغير ثابتة . وقال انه يقتضي ان تنصب المعرفة الحققة على اشياء ثابتة لا تتغير ، واننا نستطيع الى حد ما ان نحصل على المعرفة ومن ثم انتهى الى انه ينبغي ان يكون هناك عالم من الاشياء غير المتغيرة هو عالم الصور Forms . من هذا يتبين ان افلاطون والاختباريين يشتركون في استخدام الحجة لتقويض أركان عالم نسلم به ويستبدلون به شيئاً آخر - هو عند افلاطون عالم الصور وهو عند الاختباريين خبرات متعاقبة نستخلص أو نركب منها الاجسام على نحو ما . وهكذا نفق على صفة أساسية من صفات الحجة الميتافيزيقية - ألا وهي استخدامها لتقرير قضايا الوجود Existence أو اللا وجود أو العدم Non Existence ، كالقول : « ان عالم الصور هو عالم الوجود

الحقيقي » و« ان المعطيات الحسية Sense-data هي مكونات العالم الاساسية » . وهما قضيتان تختلف الواحدة عن الاخرى ، ولكنهما تقومان على أساس واحد هو الحجة التي تناولنا دراستها .

والآن تسأل : ما صلة هذه الحجة بالاختلاف بين الحجج الاستقرائية والحجج الاستنتاجية ؟ لا شك ان الحجة الميتافيزيقية ليست استقرائية بحتة : فلا يقول الميتافيزيقي الاختباري مثلاً « هناك أوهام ، ولذلك فمن المحتمل ان تكون الاجسام غير موجودة وتكون الخبرات الفردية موجودة » . ومع ذلك ينتقل من شيء أولي الى شيء آخر : فهو يبدأ بمفهوم الادراك الوهمي وينتهي الى نتيجة عامة في الادراك الحسي بما هو كذلك ؛ وهي نتيجة لا يمكن ان تردّ عليها بايراد أمثلة اختبارية معاكسة لها مباشرة ، بل باستقصاء مفهوماته ولاسيما مفهوم « الخبرة » الذي يشوبه الغموض .

ورب معترض يقول : « ليس في هذه الحجة غير حقيقة واحدة ممكنة وطائفة من الاستنتاجات . أما الاستنتاجات فقد استخلصت من مفهوم الادراك الوهمي ؛ واما الحقيقة الممكنة فتتمثل في امكان تطبيق هذا المفهوم - وذلك اننا نخدع احيانا . » لكن هذا الاعتراض يدلّ على عدم فهم الحجة الميتافيزيقية على حقيقتها ، لأن الحقيقة الممكنة ليست حقيقة ممكنة وحسب ، وان الاستنتاجات ليست استنتاجات وحسب . فاذا قال الميتافيزيقي - في شيء من البساطة المصطنعة - « اننا نخدع احيانا ونعتبر شيئاً بعينه شيئاً غيره » لا يقرر مجرد حقيقة ممكنة تحتل ان تعبر عن عكس ما هو واقع . فأن كل ما يحتاجه لاقامة حجته هو ان الادراك الحسي الكاذب Misrecognition ممكن من الناحية المنطقية ، اي وجود مثلاً هذا المفهوم ،

وعلى العموم يتضمن مفهوم الإدراك الحسي (الصادق) Recognition إمكانية الإدراك الحسي الكاذب . فطالما كان لدينا مفهوم الإدراك الحسي بالأشياء وجب أن يكون لدينا كذلك مفهوم العجز عن إدراكها حسيًا . وبطبيعة الحال قد ينعدم كل من هذين المفهومين ، وعندئذ يصبح الإدراك الحسي غامضًا كل الغموض . وعليه ففي العلاقة بين الإدراك الحسي والمفاهيم المماثلة وبين الخبرة تقوم مشكلة فلسفية عظيمة . يضاف إلى هذا أن الاستنتاجات التي يستخدمها الميتافيزيقي ليست مجرد استنتاجات ، إذ لو كانت كذلك ، لما دار خلاف كبير حول النتيجة التي تؤول إليها ، وتوصل الميتافيزيقي إلى مفهوم « الخبرة » الذي لم يقصده لذاته وإنما بلغه عرضًا .

ولكن لا يُعدّ ادخال مفهوم « الخبرة » امرًا اعتباطيًا تمامًا . بل الظاهر أنه يتضمن على نحو ما فيما سبق قوله وتفترضه الحقائق بما هي كذلك . وقد كانت إحدى الغايات التي توخاها الميتافيزيقي من حجته أظهار تلك الحقائق التي تبين الحاجة لذلك المفهوم . فليست الغاية من الحجة الميتافيزيقية استخلاص نتيجة من حقائق ، بل أظهار أن تحليل تلك الحقائق يتضمن ثغرة يستخدم الميتافيزيقي مفهومه الخاص لسدها . وقد يكون هذا المفهوم - كمفهوم « الخبرة » - موجودًا في لغتنا الدارجة فيأخذه الميتافيزيقي ، ويرفع من شأنه ويتخذ مبدأً للتفسير . وإذا كان الميتافيزيقي كاملاً ، استخدم مفاهيم اصطلاحية وغريبة عن التفكير الاعتيادي مثل : « المونادات » عند لايبنتز أو « الأشياء بالذات » عند كانت .

فالذا أخذنا ما تقدم بنظر الاعتبار جاز لنا أن نقول إن عظمة الميتافيزيقي

تقوم فيما نرى على أمور ثلاثة هي : ما مقدار كون مفاهيمه الخاصة كيفية او تعسفة ، وما مقدار ما تفسره وما مقدار ما تولد من اضطراب وتشويه في تفكيرنا الاعتيادي . وهذه الأمور بطبيعة الحال ليست مستقلة عن بعضها البعض ، بل انها مترابطة ترابط شروط تصميم الطائرة التي ينبغي على الفنيين فيها التوفيق بين حاجات متناقضة كتوفير الخفة والسعة والامان في وقت واحد . وكما ان المصمم العبقري يعمل على تصميم افضل الأشياء الممكنة يعمل الميتافيزيقي العبقري على تخطيط افضل العوالم الممكنة . وتنهض مفاهيمه بتفسير اشياء كثيرة عن طريق اكتشاف جوانب شبه ذات اهمية بين انواع الخبرة والفكر التي تبدو في الظاهر متباعدة اشد التباعد ، وينبغي ان تكون وجوه الشبه هذه حقيقية لا وليدة فرضي مفتعلة ؛ وينبغي ألا تكون وجوه الشبه هذه كيفية من حيث انه يجب علينا استخدام الحجج الواضحة القاطعة التي تجعلنا ندركها ونذكر في الوقت نفسه حاجة الميتافيزيقي لمفاهيمات تفسيرية .

على اننا لا نعنى هنا بالصفات المميزة للنظام الذي يسعى الميتافيزيقي الى اقامته ، بل بالحجج التي يستخدمها لهذا الغرض . ولا بد ان يكون كل وصف موجز لهذه الحجج مشوها . غير اننا نجمل صفاتها العامة فيما يلي فنقول : ان الميتافيزيقي يشعر بوجود تناقض او صعوبة او نقص في تفكيرنا الاعتيادي في جانب من جوانب خبرتنا او فيما يقوم عليه تفكيرنا . وحين يقوم الميتافيزيقي بحل هذه الصعوبة وتلافي هذا النقص يحاول ان يبين ان المفهوم الذي نعتد عليه (في تفكيرنا) ثانوي بالنسبة الى (او لازم لوجود) مفهوم آخر استحدثه او جاء به من مكان آخر . وقد يكون لهذا المفهوم اهمية

خاصة في حل المشكلة موضوعة البحث (كاستخدام الاختبارين لمفهوم « الخبرة ») او قد يستخدمه بشكل واسع في مكان آخر (كالصور الافلاطونية) لحل مشكلات اخرى ، وكلما اكثر من استخدامه ، زادت فلسفته انتظاما .

ومصدر القوة في حجة الميتافيزيقي انه يبدأ من مفاهيم وجوانب من الخبرة لا مناص فيما ييدر من وجودها اذا اردنا ان نفكر في خبرتنا اطلاقاً . وان محاولته في اظهار ان مفهوما من المفاهيم ينطوي على صعوبة او يستلزم مفهوما آخر تؤدي الى اصدار احكام تتصل بالوجود او العدم . وهذه الاحكام التي يسوقها عن الوجود او العدم - على عكس الاحكام الاختبارية او الرياضية - نسبية على نحو ما . والسبب في ذلك ان الميتافيزيقيين جميعا يتفقون على ان المظهر - اي جوانب العالم غير الحقيقية من الوجهة الميتافيزيقية - لا بد ان يجد له في آخر الامر مكانا في تفسير الاشياء بما هي عليه في الحقيقة ، وقد عرفنا هذا من قبل حين درسنا التمييز الذي يضعه الفلاسفة الاختباريون بين الادراك الوهمي والادراك الحق . والدليل المشهور الذي جاء به مكتاخرد على ان الزمان غير حقيقي (وهو من الناحية الفلسفية جدير بالدراسة ومن العسير دحضه) يمهّد لتفسير الموجودات الحقيقية التي تبدى لنا مشوشة شأنها شأن الزمان . من هذا استدل البعض ان مهمة الميتافيزيقي الرئيسة هي اعادة وضع الاشياء او ترتيبها Reallocation اي الارتفاع بمفهوم معين الى مقام الصداوة على حساب مفاهيم اقرب الى المألوف في تفسير الاشياء .

وفي هذا شيء من الصحة . لكن اختيار مثل هذا المفهوم وكيفية تطبيقه

ليس شيئاً اعتباطياً بحتاً . تبقى أمامنا مشكلة هي لماذا تبدو بعض المفاهيم
أقدر على تفسير الأشياء من غيرها ؟ ان مثل الحجج الميتافيزيقية كمثل
الاشجار : فإن موضعها وشكلها يتغلقان الى حد كبير بالذوق ، فيستطيع
الميتافيزيقي ان يختار شكلها والمكان الذي يزرعها فيه ، ولكن ليس له الخيار
في نموها او عدمه ، لأن بعض حقول الفكر اخصب من غيرها . واذا
استخدمنا فأس الوضعي لقطع الاشجار ، فإنها تنمو ثانية ، اما اذا
استخدمنا مسحة فتكنشتاين لاقتلاع جذورها ، دهمت جهودنا سدى ، لأنه
اذا اقتلعنا مجموعة واحدة من الجذور بقيت مجموعات كثيرة اخرى اذا كانت
الشجرة باسقة . وربما كان اقتلاع الجذور وظيفة الفيلسوف الرئيسة في
الوقت الحاضر - ولا شك ان زراعة اصخم الاشجار لم يعد مدعاة للفخر
الآن وان كان له ما يبرره فيما مضى . . فقد استطاع الميتافيزيقي معرفة اين
تنمو الافكار .

ان الرغبة في الاستزادة من المعرفة هي التي تدفع الفيلسوف الى مواصلة
البحث عن الاصول ، فتدفعه الى معرفة : ما الذي يجعل الافكار
الميتافيزيقية تنمو ؟ لماذا تنشأ الحجج الميتافيزيقية من بعض جوانب الخبرة دون
غيرها ؟ ولا بد ان يكون الجواب عن هذه الاسئلة في اخر الامر ميتافيزيقيا

الفصل الرابع

العلم و الميتافيزيقا

SCIENCE AND METAPHYSICS

ربما اوحى عنوان هذه المقالة ان من السهل تحديد المركز الذي يحتله التفكير الميتافيزيقي سهولة تعيين مثيله من التفكير العلمى . على ان الفلاسفة - كما يتبين فيما بعد - يختلفون في تحديد المركز الذي يشغله التفكير الميتافيزيقي على وجه الدقة . ولكي نوضح ذلك نناقش على سبيل المثال الفكرة التي تتضمنها العبارة : « اذا توفر السبب ذاته حصلت النتيجة ذاتها » . فالرأي الغالب ان المبدأ الذي تقوم عليه هذه الفكرة هو اساس الاستدلال العلمى ذاته لأنه يبرر استخلاص نتائج سليمة من بيانات او شواهد محدودة . ولذلك قال اج . مارجينو^(١) H.Margenau في كتاب متأخر له في مناهج العلم الطبيعي :

« السببية هي في الحقيقة احدى المستلزمات الميتافيزيقية للنظرية الطبيعية^(٢) » .

(١) مارجينو H.Margenau عالم فيزيائي امريكي معاصر .

(٢) H. Margenau, the Nature of Physical Reality: A Philosophy of Modern Physics, 1954, P. 94.

وكان يمكن ان نقول كذلك ان هذا المبدأ ليس إلا فكرة عامة تكاد تكون غريزية او انها مصادرة وضعت لتحقيق انغراض عملية . والحقيقة ان مارجينو في مؤلفه هذا ينحو هذا المنحى اذ يقول :

« يستمد مبدأ السببية قوته من كونه منهجيا . . اذ تطعم به المناهج العلمية البناءة دوغما انقطاعاً^(١) » .

من هذا يتبين ان امر تحديد مركز الميتافيزيقا قد يصبح في حد ذاته موضع جدل فلسفي .

وهذا مثال آخر ذو صلة بالموضوع . يقول برتراند رسل في تحليل المادة Analysis of Matter ان المبدأ الذي يقوم عليه المنهج العلمي المنطقي هو « ان ابسط قانون ينطبق على الحقائق المعروفة ينطبق كذلك على الحقائق التي تكتشف فيما بعد^(٢) » . وهو يقول ان هذا المبدأ ليس مصادرة تحدد مجال العلم وتعين حدوده ؛ ولا يمت الى الميتافيزيقا بأي سبب . على انه كان يمكن ان نضع هذه الحجة بشكل آخر فنقول : لما كان العلم الحالي يعتمد على امكانية اكتشاف قوانين بسيطة ؛ وجب ان تكون الطبيعة بسيطة . ولذلك يمكن القول ان فهم طبيعة العلم معناه فهم الطبيعة . وهذا هو الاتجاه الذي تبناه غاليليو^(٣) Galileo حينما قال :

Ibid. P. 407

(١)

B. Russell The Analysis of Matter, 1954, PP. 233, 237. (٢)

(٣) غاليليو Galileo Galilei (١٥٦٤ - ١٦٤٢) عالم طبيعي وفلكي ايطالي ومن

« تعمل الطبيعة بواسطة قوانين ثابتة تعتصم بها ولا تخالفها » . وحين قال ايضا :

« لا تلجأ الطبيعة الى استخدام اشياء كثيرة لتحقيق أمر من الامور اذا استطاعت تحقيقه بواسطة اشياء قليلة ^(٦) »

ومع قيام شبه بين عبارات غاليلو ورسلي يلاحظ وجود خلاف بينهما ذلك ان الاولى تنطوي على تحويل قاعدة منهجية الى عبارة واقعية . ولكي نوضح هذه النقطة ندرس عبارة اخرى ذكرها غاليلو وهي : « الكون مكتوب بلغة رياضية » . لقد قيل ان هذه العبارة تعكس جانباً من الشروط الميتافيزيقية التي افترضها غاليلو لقيام العلم ، ويمكن اعتبارها دعوة الى ان دراسة الفيزياء والفلك دراسة صحيحة لا تتحقق دون الاستعانة بالرياضيات . وبطبيعة الحال قد نتردد في القول ان كلتا العبارتين (عبارتي غاليلو ورسلي) تعنيان شيئاً واحداً . وربما رأى البعض ان غاليلو لم يكتف بالاشارة الى انه يمكن دراسة العالم على نحو ما دراسة رياضية (اي استخدام الطريقة الرياضية في دراسة العالم) ، بل اعتقد ان الرياضيات هي المفتاح لكشف أسرار

رواد النظرة العلمية الحديثة ، تمحى التسليم الأعمى لآراء أرسطو وهاجم المدرسية الايقانية ، واكتشف قانون التسارع . وأسس أول تلسكوب في العالم ساعده على القيام بدراسات فلكية عديدة .

(المترجم)

Quoted in E.A. Burtt, The Metaphysical Foundations of (٦)
Modern Science, 1932, P. 64.

الطبيعة ذاتها . ومن البين ان مسألة تكافؤ هاتين العبارتين موضع جدل فلسفي كذلك . واذا اعتبرنا تأكيد أو تصريح غاليلو هذا ميتافيزيقيا ، اتخذنا موقفا معينا حيال هذه الحجة . وينبغي ان نتذكر هذه النقطة فيما بعد حيث تبين الجوانب الميتافيزيقية في تأكيد غاليلو وما جرى مجراه . وقد تعمدنا استخدام كلمة « تأكيد » لأنها تعبير بديع عن شيء منظور في طبيعة العبارات الميتافيزيقية اذ تقوم العبارات الميتافيزيقية فيما يبدو بين اتجاهين متعارضين في تفكيرنا . يبين الاقرار Avowal والايصاء Recommendation والافتراض Postulation من جهة والوصف Description والاخبار Information من جهة اخرى .

نريد بعد ذلك ان نبين كيف تنشأ التأكيدات الميتافيزيقية من التأمل في طبيعة التفكير العلمي ، نلاحظ ان العلم - أي علمه - في أدواره المتطورة لا يقتصر على الملاحظة - مقصودة كانت ام غير مقصودة - بل يتضمن ايضا بناءً فوقيا يتألف من العناصر الرابطة كالنظريات والقوانين والمفاهيم النظرية وما الى ذلك . ولولا هذا البناء الذهني المطلق لما استطاعت الوقائع بذاتها ان تقضي الى أية معرفة علمية ابدا .

على ان التأمل في عملية وضع النظريات العلمية افضى دائما وبالضرورة الى ثلاثة انواع مختلفة من الصعوبات الكأداء وهي : اولا الصعوبات التي تتعلق بطبيعة المفاهيم او العناصر التفسيرية كالذرات والقوى والطاقة الجنسية (اللبید) والجينات التي يترتب على كل نظرية استخدامها ؛ وثانيا ، الصعوبات الناشئة عن تحديد المكانة المنطقية للقوانين التي تؤلف اساس كل نظرية ، واخيرا الصعوبات التي تتصل بطبيعة النظريات بماهي

كذلك اي باعتبارها تفاسير . وسنقوم فيما يلي بذكر امثلة لايضاح هذه الانواع من الصعوبات بالتأوب .

تستخدم كل نظرية فيزيائية موجودات خاصة كالذرات والبروتونات والالكترونات أو روابط كالكوى والطاقات والطاقة المتاحة^(١) Entropy يمكن ان توصف بشيئين متناقضين في الظاهر . ولندرس الذرة على سبيل المثال . نصف الذرات من زاوية العلم بأنها الكتلة (الوحدات) الاساسية التي يتكون منها الكون . ولكن من الجهة الاخرى لا يسعنا الا ان نقول اننا لا نملك عن وجودها الا دليلا غير مباشر قل او كثر ، وان معرفتنا بها لا تتصل الا بطريقة معقدة جدا بما نحصل عليه مباشرة - أي المواقف التجريبية المتعددة . وهذا مما يدفعنا الى اتخاذ نظرة تعاكس الاولى .

والآن نتساءل : هل لهذا التناقض علاقة بالميتافيزيقا ؟ كان جون دالتون^(١) John Dalton قد وضع في مستهل القرن التاسع عشر نظرية ذرية

الطاقة المتاحة . Entropy احدى المفهومات الاساسية في الفيزياء الكلاسيكية ادخلها الكوسبوس R. Clausius ومعناها امكانية تحويل الطاقة ومقادها : كلما ازدادت الطاقة المتاحة في نظام قلت طاقته على التحويل .

(المترجم)

(١) جون دالتون John Dalton (١٧٦٦ - ١٨٤٤) . عالم كيميائي انكليزي ذائع الصيت وهو صاحب النظرية الذرية الحديثة .

(المترجم)

لتفسير بعض القوانين الخاصة باتحاد العناصر الكيميائية كالقانون الذي ينص على ان العناصر الكيماوية لا تتحد مع بعضها الا بنسب (مقادير) معينة وثابتة . وهذا معناه ان وزن عنصر قياسي معين يكافئ وزن العناصر الأخرى مكررا عددا من المرات . ولكن السير همفري ديفي^(١) Sir Humphry Davy العالم الكيماوي المشهور الذي عاصر دالتون اعترض على افتراض وجود الذرات لأنه اعتقد اننا نملك الادلة على تكافؤ العناصر فقط وليس على وجود الذرات التي زعم البعض انها تكون العناصر وتفسر ثبات نسب مقاديرها .

وينبغي ان نلتفت هنا الى نقطة على جانب من الاهمية ؛ لقد بين المثال البسيط الذي اوردته ان الدلائل على وجود الذرات ناقصة وغير مباشرة . وحين تتكامل الدلائل فيما بعد ، ستظل ولا بد ان تظل الى حد ما غير مباشرة . وهذه هي احدى الحقائق المهمة التي تؤدي الى تناقض في وجهات النظر التي نريد استعراضها .

لقد تعززت النظرية الذرية بمضي الزمن ولا سيما في الحقبة ما بين ١٨٦٠ - ١٨٧٠ نتيجة التطورات التي حصلت في النظرية الحركية للغازات على

(١) السير همفري ديفي Sir Humphry Davy (١٧٧٨ - ١٨٢٩) عالم كيميائي انكليزي كان لابعائه واكتشافاته الكيميائية اثر بعيد في العلوم . كان اول من استخدم التيار الكهربائي في تحليل المواد الكيميائية .

(المترجم)

ايدي ماكسويل^(١) Maxwell وبولتزمان^(٢) Boltzmann وآخرين وكذلك نتيجة لنجاح علماء الكيمياء في تعديل نظرية دالتون ذاتها والافادة منها - ناهيك عن الابحاث التي ابتدأت عام ١٨٩٠ وتوجت بتكييف المفاهيم الذرية (اللكترون) لتفسير ظاهرة تفرغ الشحنات الكهربائية في الغازات (جي . جي . تومسن ١٨٩٧ - ١٨٩٩) J.J. Thomson^(٣)

فاذا كان وجود الذرات مسألة تجريبية ، جنح المرء من دون شك الى القول : ان هذه التطورات قد شدت ازر الفرضية الذرية . وماذا كان ردّ الفعل (الذي احداثته هذه الفرضية) عند العلماء وفلاسفة العلم المعاصرين ؟ الجواب هو ان بعضهم أخذوا بيد هذه الفرضية في حين ناصبها

(١) ماكسويل J. C. Maxwell (١٨٣١ - ١٨٧٩) عالم فيزيائي اسكتلندي كان استاذ الفيزياء التجريبية في جامعة لندن . اشتهر بأبحاثه في الكهرباء والمغناطيسية وهو الذي اكتشف نظرية الكهر ومغناطيسية للضوء .

(المترجم)

(٢) بولتزمان L. Boltzmann (١٨٤٤ - ١٩٠٦) عالم فيزيائي نمساوي وعضو اكاديمية العلوم في فينا . تتناول أبحاثه نظرية الأشعاع والنظرية الحركية للغازات والتفسير الاستاتي للمبدأ الثاني من الديناميكا الحرارية .

(المترجم)

(٣) تومسن J. J. Thomson (١٨٥٦ - ١٩٤٠) استاذ الفيزياء التجريبية في جامعة كامبردج ، وله أبحاث عديدة في المغناطيسية والديناميكا والفيزياء بصورة عامة ، وقد نال جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٠٦ .

(المترجم)

بعضهم الآخر العداء - وهذا هو ما يعيننا في هذا المجال . ولكي نوضح ذلك نقارن بين رجلين من عظماء المفكرين اللذين يمثلان عددا كبيرا من رجال الفكر الذين كانوا حتى نهاية القرن التاسع عشر ينكرون وجود الذرات في الطبيعة . الاول هو العالم الكيماوي المشهور ولهمل اوستولد^(١) Wilhelm Ostwald الذي قال في أواخر سنة ١٩٠٢ ان عناصر النظرية الحركية الذرية أو الجزيئية مجرد فرض لم يقم عليه البرهان وانكر ان تكون الحرارة حالة من أحوال حركة الدقائق المادية لعدد من الاسباب اعقد مما يتسع المجال لدراستها هنا^(٢) . والآخر هو الفيزيائي والعالم النفسي وفيلسوف العلم الذائع الصيت ارنست ماخ^(٣) Ernst Mach الذي ذكر في كتابه علم الميكانيك Science of Mechanics (١٨٨٣) .

(١) ولهمل اوستولد W. Ostwald (١٨٥٣-١٩٧٢) عالم كيميائي ألماني وأستاذ الكيمياء في جامعة ريفاثم لايبزج . ويعتبر اوستولد مؤسس المدرسة الكيميائية الطبيعية الحديثة وكان لابعائه أثر كبير في المواد المفرقة التي استخدمت في الحرب العظمى . الاول . نال جائزة نوبل سنة ١٩٠٩ .

(المترجم)

W. Ostwald, Vorlesungen über Naturphilosophie, (٢) 1902. P. 204.

(٣) ارنست ماخ E. Mach (١٨٣٨ - ١٩١٦) عالم فيزيائي وفيلسوف نمساوي ، احد مؤسسي النقدية الاختبارية . وقد حذا حذو هيوم في انكار فكرة السببية والضرورة والجوهر لانها لا تكتسب بواسطة التجربة .

(المترجم)

« لا يمكن ان ندرك الذرات بالحواس ؛ وهي أشياء من صنع الفكر شأنها شأن الجواهر كلها . . . وهي نموذج رياضي لتسهيل تمثيل الحقائق تمثيلا عقليا^(١) » .

وقد تقدم العلم ما بين ١٩٠٣ - ١٩١٢ خطوات كبيرة أخرى ، نذكر منها كتاب انشتاين^(٢) Einstein لاهميته العظمى بالنسبة للموضوع الذي نبحثه هنا ، فالتقديرات التي تنطوي على وجود الزخوم الجزيئية Molecular Impacts المتسببة فيما يسمى بـ « الحركة البراونية^(٣) » Brownian Motion للدقائق المرئية الصغيرة المعلقة في سائل ادت الى

E. Mach Science of Mechanics, 1942, P. 590. (١)

(٢) انشتاين A. Einstein (١٨٧٩ - ١٩٥٥) عالم فيزيائي ألماني وواحد النظرية النسبية وعدد من النظريات الفيزيائية الأخرى التي افضت الى مفاهيم جديدة في المكان والزمان والحركة والجوهر والضوء والجاذبية . وفي عام ١٩١٦ ، وضع فكرة النظرية العامة للنسبية ، وفي أثناء الحكم النازي اضطر الى مغادرة ألمانيا واستقر في جامعة برنستون في أمريكا الى ان وافاه الأجل .

(المترجم)

(٣) الحركة البراونية Brownian Motion: وتعني حركة أجسام دقيقة معلقة في وسائل تحت تأثير قصف الجزيئات وقد كانت هذه النظرية برهاناً قاطعاً على حقيقة الجزيئات وعلى حركتها .

(المترجم)

تكهنات تمكن من التثبت منها بيرين^(١) Perrin وآخرون (١٩٠٦)
 (١٩٠٨) بالتجربة . وفي الوقت نفسه تمكن ولسن^(٢) Wilson (١٩٠٣)
 ومن بعده ملكان^(٣) Millikan من حساب كمية الشحنة الكهربائية التي
 يحملها الالكترون حسابا دقيقا جدا ، وكان ذلك كله بمثابة ضربة لنظرية
 اوستولد ، ولذلك قال في المقدمة الجديدة لطبعة كتابه Allgemeine
 Chemie لسنة ١٩٠٩ انه « مقتنع » ان هناك من الادلة التجريبية ما يبرهن
 على ان المادة تتكون من الذرات ، بل وان اكثر العلماء تحفظا كانوا على حق
 « في الاعتقاد بوجود براهين تجريبية على صدق النظرية الذرية للمادة^(٤) » .
 اما رد الفعل عند ماخ فقد كان يختلف عن ذلك تماما . ففي اواخر عام
 ١٩١٥ ، أي قبل وفاته بعام واحد، قال في احدى مذكراته انه « ليس بوسعه

(١) بيرين J.B.Perrin (١٨٧٠ - ١٩٤٢) عالم فيزيائي فرنسي حصل على جائزة
 نوبل في الفيزياء عام ١٩٢٦ مكافأة لأبحاثه في حركة بروان وتوزيع الدقائق المعلقة في
 سائل . (المترجم)

(٢) ولسن T.R. Wison (١٨٦٩ - ١٩٥٩) عالم فيزيائي بريطاني استطاع ان
 يجعل سبر الدقائق المشحونة بالكهرباء مرئية ، ومنح جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٥٣ .
 (المترجم) .

(٣) مليكان Robert Andrew Millikan (١٨٦٨ - ١٩٥٣) عالم فيزيائي
 امريكي اشتهر بأبحاثه على الالكترون وباكتشافه الاشعة السينية X—Rays وكان
 استاذ الفيزياء في جامعة سيكاغو . وحصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٢٣ . (المترجم)

(٤) W. Ostwald, Grundriss der allgemeinen Chemie, (٤)
 1909, preface.

ان يسلم بوجود الذرات ولا أشباه هذه الافكار الاخرى^(١) . فيمكننا ان نستنتج من ذلك ان التطورات التي حصلت في العلم بالغة ما بلغت لم تكن لتستطيع ان تغير وجهة نظر ماخ هذه . ومع ان هذه التطورات تتعلق في الاصل بمشكلة اختبارية ، الا انها تعالج مسألة تتصل بمفهوم مغاير عن الوجود (او ان شئت فقل بأفكار أخرى تتصل بمفهوم الوجود) . وهناك اشارة الى ذلك في فقرة من كتاب الميكانيك Mechanics تؤكد على ان البيانات (على وجود الذرات) غير مباشرة ، ولا يمكن ان تدرك بالحواس . فنظرة ماخ هذه تقوم على المبدأ القائل انه لا شيء حقيقي أو موجود الا عناصر الاحساس .

ومهما يكن أصل هذا التأكيد بالذات فانه لسوء الطالع سيفقد عنصره التجريبي عاجلا أو آجلا ، لأن اعتبار شيء من الأشياء تجريبيًا مسألة غير تجريبية في حد ذاتها . وقد المع ماخ الى ذلك في بحثه في انكسار الضوء اذ قال : « لا وجود لقانون الانكسار في الطبيعة ، اذ هناك حالات فردية من الانكسار وحسب^(٢) » .

لكن كل حالة فردية من حالات الانكسار تعتبر هي الاخرى مجردة ومعقدة وعامة . فلا شك ان احدا لا يعرف هل يمكن ان تعد هذه الحالة الفردية عنصرا حسيا ، أي شيئا أساسيا وغير مباشر لا شيئا مشتقا أو مركبا . واذا لم يكن في وسعنا ان نعرف ذلك في هذه الحالة حالت معرفته علينا

E. Mach, op. cit. P. 583.

(١)

E. Mach, op. cit. P. XXVI.

(٢)

تماما . والحقيقة ان هذه التأكيدات كيفية من حيث الاصل . ومن هذا نخرج بشيء واحد على الاقل هو هذا : ليست لهذه المسألة صلة بالامور العلمية . وتأكيذا لهذه النقطة نذكر بعض الفلاسفة الذين افاضوا في ايضاحها . ففي العقد الخامس من القرن التاسع عشر عارض وليم ويول William Whewell^(١) في كمبردج الفرضية الذرية وزعم انها مسألة فلسفية بحتة ، فقال :

اذا اعتبرنا هذه النظرية حقيقة فلسفية تتعلق بتركيب الكون وليس مجرد فرضية ملائمة لتفسير قوانين الطبيعة أو حسابها ، اعترضتنا صعوبات خاصة بالاستدلال لا نستطيع تذليلها ، ووجدنا ظواهر متنافرة لا نستطيع ان نوفق بينها^(٢) .

وقال فيلسوف العلم والعالم الفيزيائي الامريكي برجمان^(٣)

(١) وليم ويول William Whewell (١٧٩٤ - ١٨٦٦) فيلسوف بريطاني استاذ الفلسفة في جامعة كمبردج . كان رائدا في دراسة المنهج العلمي ، مؤكدا اهمية الاستقراء في ذلك المنهج . (المترجم)

W. Whewell, The Philosophy of Inductive Sciences, (٢) 1840, vol.. i, p. 414.

(٣) برجمان P. W. Bridgman (١٨٨٢ - ١٩٦١) عالم فيزيائي وفيلسوف امريكي ، كان استاذ الرياضيات والفيزياء في جامعة هارفرد ونال جائزة نوبل للفيزياء في أبحاثه على الضغوط العالية . وفي الفلسفة يعتبر مؤسس وزعيم الاتجاه التشالي الذاتي المعروف باسم العملية Operationism . وقد بسط آرائه الفلسفية في كتبه « منطق الفيزياء الحديثة » (١٩٢٧) وطبيعة النظرية الفيزيائية (١٩٣٦) وغيرها . (المترجم)

P.W.Bridgman عام ١٩٢٧ ان الذرة ليست الا « مركبا وان وجودها مسألة استنتاج بحث » على الرغم من « اننا متيقنون من حقيقتها الفيزيائية تيقن وجود ايدينا واقدامنا ^(١) » .

وقد تجلى تقطع الاسباب بين الدلائل الاختبارية والمسألة موضوع البحث بصورة اوضح في فقرة من كتاب روبرت كروستسه وأصول العلم التجريبي .

Robert Grosseteste and the Origins of Experimental Science

لؤلفه اي . سي . كرومبي ^(٢) A.C.Crombie حيث قال :

« لا تفيدنا النظرية العلمية - أية نظرية علمية - من المعلومات عن الحقائق التجريبية أكثر مما تفيدنا عنها في الظاهر ، أي ان هذه الحقائق مترابطة مع بعضها البعض على نحو معين ؛ وليس بوسعها ان تقيم الدليل للاعتقاد بأن الالعيان (الكيانات) Entities التي نفترضها من أجل هذه النظرية

P. W. Bridgman The Logic of Modern Physics, 1927, P. (١)
59.

(٢) كرومبي Alistain Cameron Crombie أستاذ فلسفة العلم في جامعة اكسفورد ولندن وله مؤلفات عديدة أهمها « من اوغسطين الى غاليلو » Augustin to Galeleo و « تاريخ العلم » History of Science والكتاب المذكور أعلاه .
(المترجم)

موجودة بالفعل . . . من هذا نخلص الى ان النظرية العلمية لا تنطوي على أية مضامين ميتافيزيقية (١) .

نلاحظ من هذا انه لكي نقرر الاشياء الاساسية الموجودة « في الطبيعية » ينبغي علينا « من حيث اننا ميتافيزيقيون » ان نتخطى المعايير الاختبارية ، ولكن هل باستطاعتنا ان نفعل ذلك ؟ فلننظر بادى ذي بدء في انتقادين يمكن ان يعدا دليلين على امتناع تجاوز حدود التجربة . وها هو ذا ستيفان تولمان (٢) Stephen Toulmin يقول في تقريرى للكتاب المذكور :

« يدعي العلماء ان من حقهم التمييز - بينات تجريبية لا ميتافيزيقية - بين الالعيان الموجودة بالفعل والالعيان التي لا تعدو ان تكون أوهاما (٣) .

ومما هو جدير بالتنويه ان كرومبي لم يغفل عن التمييز الذى وضعه العلماء بين الحقيقة والوهم ، لكنه رأى ان مهما بلغت هذه الاختلافات (القائمة بين الحقيقة والوهم) لا نستطيع ان نقطع بوجود الالعيان العلمية الحقيقية بما هي كذلك . وبغارة أخرى لقد تجاوز كرومبي حدود العلم .

A. C. Crombie, Robert Grosseteste and the Origins of (١) Experimental Science, 1953, P. 319.

(٢) تولمان Stephen Toulmin أستاذ فلسفة العلوم في جامعة اكسفورد ، ومن مؤلفاته فلسفة العلم ومكانة العقل في الاخلاق .

(المترجم)

S. Toulmin, Mind, Vol. 63, 1954, P. 556.

(٣)

على ان هذا النقد ينطوي على شيء أبعد اثرا . اذ قد يبدو ان تجاوز الناس حدود العلم على النحو الذي وصفناه من المحال مهما بذلوا من جهود في هذا السبيل ، بل وقد يرغب الناس في التأكيد على ان الكلام على الوجود ينقلب لغوا في الحالات التي لا يمكن التحقيق منها بالتجربة . وقد يكون من المفيد ان نربط هذا الاعتراض الذي ينطوي على تطبيق نظرية اعم في المعنى - بالموقف العلمي الذي هيأ اقامة هذه المسألة (التمييز بين الحقيقة والوهم) على اسس متينة .

وحين يفسر العالم الفيزيائي النظرية النسبية يقول أحيانا : « ليس للحركة المطلقة أي معنى (١) » . والحركة المطلقة فيما نفهمها حركة نظام فيزيائي بالنسبة الى الفراغ وليس بالنسبة الى جسم آخر ، وعليه فالقول انه ليس لمفهوم الحركة المطلقة دلالة معناه ان التجارب الفيزيائية لا تستطيع ان تنبئنا بوجودها بأية صورة من الصور ، ونقول « بأية صورة من الصور » لأن مثل هذه المعلومات تتعارض مع مبدأ النسبية . ويصبح فحوى هذا المبدأ ان القوانين الفيزيائية تشير الى أي نظام (من الأشياء) يتحرك بسرعة نسبية موحدة دون تمييز . وهذا معناه « انه لا يمكن التحقق من الحركة المطلقة ولا دحضها . ولذلك كان مفهوم الحركة المطلقة خاليا من المعنى » . ومما هو جدير بالملاحظة هنا ان القول بخلو الحركة المطلقة من المعنى يتصل بشيء ايجابي لأنه يشير بصورة غير مباشرة الى قانون فيزيائي هو مبدأ النسبية . وهذا يختلف عن القول : « ليس باستطاعة العلم ان يتحقق من وجود

H. Dingle, The Special Theory of Relativity, 1940, P. 1. (١)

الاعيان العلمية ولا دحضه . ولذلك فليس لمفهوم الوجود هذا أية دلالة . ،
لأن القول بخلوه من المعنى لا يشير الى شيء ايجابي ، بل يسترعي انتباهنا
الى احدى الصفات المميزة الموجودة في طائفة معينة من التأكيدات والى
استخدام نوع من المصطلحات (التعابير) استخداما خاصا . فهو لا
يدحض التأكيدات الميتافيزيقية بقدر ما يحظر استعمالها .

هذه الامور تبين ان حجة اصحاب مبدأ التحقق لا تشكل دليلا قاطعا
ضد أي موقف ميتافيزيقي ، لكنها في الوقت نفسه تكشف صفته الفريدة .
والحق ان الميتافيزيقي ليست عصية على النقد على أساس الصدق والمعنى الا
بعد ان تدفع ثمننا عن ذلك . والسبب انه لا بد من ان يفقد التأكيد
الميتافيزيقي عندئذ كل تأثير حقيقي وتنقطع صلته بالمسائل المحسوسة التي
يدور حولها الخلاف . واذا كان هذا شأن التأكيد الميتافيزيقي ، فمعنى ذلك
انه لا فائدة منه ، ولكي نوضح هذه النقطة ينبغي ان نتعقب الخطوات التي
آلت الى هذا الموقف . فنقول ان العلم يتضمن طريقة محدودة المعالم
واضحة القسبات نستخدمها لاستنتاج وجود أشياء معينة من بيئة معينة ،
مثل الالكترون - أي الكترون - والشحنة الكهربائية الثابتة التي يحملها
الالكترون . غير ان التأمل في طبيعة البيئة النظرية وكونها غير مباشرة يولد
فينا شعورا بعدم الاطمئنان يظهر في انكار العلاقات الاعتيادية التي نعتقد
انها قائمة بين البيئة والنتيجة . ويغثي فينا هذا الشعور بالقلق حتى يبلغ
الرغبة الجامحة في اتخاذ نموذج معين للوجود أو الحقيقة واعتباره معيارا يتوجب
على كل شيء آخر ان يقترب منه قليلا أو كثيرا لئلا يظن به انه « مظهري
بحت » . ومن امثال هذه النماذج موضوعات الحس والحالات الآنية عند

ماخ . و بطبيعة الحال لابد ان يكون التأكيد الميثافيزيقي على ان هذه النماذج صحيحة تعسفيا من حيث الاساس كما سبقت الاشارة ، وينجلي هذا التعسف في كون هذه النماذج ممتعة عن النقد الاختباري .

ومن أجل ايضاح هذه النقطة وتثبيتها ننظر في الطائفة الثانية من الصعوبات المتعلقة بمركز القوانين العلمية عامة .

نعود مرة أخرى الى عبارة ماخ « لا وجود لقانون الانكسار في الطبيعة ، وانما توجد حالات فردية من الانكسار وحسب » . فنقول ان هذه العبارة متناقضة في ظاهرها لأنها من ناحية توحي وكأننا نعدم كل بيئة على وجود القوانين اطلاقا ، ومن الناحية الأخرى تميل الى الاعتقاد بتوفر كل البيئات على وجودها . على ان هناك أمورا أخرى تتعلق بصعوبة أعمق . مثلا : هل نستطيع ان نكون على يقين بأن قانونا أو نظرية فردية تنطبق على العالم في المستقبل ؟ قد يكون الجواب انه في حال وضع ايدينا على قانون توقف عن الانطباق على العالم ، نضطر ان نستبدل به قانونا آخر أفضل منه ، وعندئذ تكون تلك الاعتبارات غير ذي موضوع ، لانه قبل كل شيء ليس لدينا ما يضمن الاعتقاد بان معرفتنا السابقة ادنى اثر في التكهن بالمستقبل . كما ان التخلي عن قانون غير واف رهن بمسألة هل يحق لنا ان نضع أي قانون بادئ ذي بدء . وقد نهج ماكس بلانك^(١) Max Planck صاحب

(١) ماكس بلانك Max Planck (١٨٥٨ - ١٩٤٧) عالم فيزيائي ألماني ، يقرن اسمه في العادة بنظرية الكم .

(المترجم)

نظرية الكم Quantum Theory في كتاب الكون في ضوء الفيزياء الحديثة
The Universe in the Light of Modern Physics هذا النهج اذ قال :

« لا يجوز ان نسلم بوجود القوانين الفيزيائية كائنة ما كانت ، أو انها اذا وجدت الآن استمرت كذلك على نحو مماثل لما كانت عليه في الماضي ^(١) »

مع أن هذه العبارة تدل على انه ينبغي ان نكون على حيطة وحذر من النتائج التي نستخلصها من تجاربنا ، الا اننا نشعر انه لا بد من وجود شيء آخر موضع شك ، ولا نقصد بذلك خلو هذا المجال من المشكلات ، بل نعني انها اذا وجدت ، فليس لخبرتنا ولا للعلم المنظم أدنى صلة بحلها على الاطلاق . وقد ردد هذا عالم فيزيائي آخر وهو ماكس بورن ^(٢) Max Born حين قال ان حل هذه المشكلة هو « مسألة ايمان » Question of Faith وكل تعبير صوري عن مبدأ يساهم في حلها يكون « مبدأ ميتافيزيقيا ^(٣) » ..

(١) M. Planck, The Universe in the Light of Modern Physics, 1931. P. 63.

(٢) ماكس بورن Max Born (١٨٨٢ - ١٩٧٠) عالم فيزيائي ألماني ، عمل استاذاً في جامعة كوتنغن Gottingen عام ١٩٢١. ثم رحل الى انكلترا أثناء الحكم النازي ، ويعيش الآن في ألمانيا الغربية . ألف كتباً كثيرة في نظرية الذرة والبلورات ، واشتهر بما قدمه للميكانيكا الكمية .

(المترجم)

(٣) Max Born, The Natural Philosophy of Law and Chance, 1949, P. 7.

ولذلك نطلق على الشك الذي خاמרنا على هذا النحو اسم الشك الميتافيزيقي Metaphysical Doubt . فما سبب التخلي عن حقل التجربة والانتقال الى شك لا حد له ؟ واذا زعم رجل ان اكتشاف حقائق وقوانين علمية كثيرة لا بد ان يشكل دليلا حقيقيا على اقرار القوانين (في الطبيعة) ، فإن فكرة ماخ التي ذكرناها من قبل يمكن ان تهيم لنا ردا على ذلك . فنقول : « مع وجود قوانين الطبيعة (كما يسميها العلماء) ، فليس في الطبيعة قوانين » . مرة أخرى يتخذ ماخ فيما يظهر معيارا خاصا للحكم على هذه المسألة ويسعى الى تحقيق أهداف خاصة في التوصل الى هذه النتيجة : بالانتقال من الكلام عن « قوانين الطبيعة » الذي لا يشير أية مشكلة الى الكلام عن « القوانين في الطبيعة » التي هي موضع جدل حاد .

واذا اردنا الافاضة في الحديث عن المثال المتقدم قلنا ان انكار وجود « القوانين في الطبيعة » يعني الاقرار بأن « القوانين » -- كما تدعى -- لا ترتقي الى مستوى معين من الحقيقة أو الواقع ، ولا شيء جوهري أو حقيقي يناظر مفهوم القانون بالقدر الكافي . وتدل العبارة « لا ترتقي الى مستوى معين من الحقيقة أو الواقع » على ان القانون - أي قانون - في عدد من جوانبه الاساسية يختلف عما نسميه بالنظير الاختباري Empirical Analogue الذي تتوفر فيه شروط مثل هذا المعيار . (وما هو جدير بالملاحظة هنا ان كلمة « الحقيقة » أو « الواقع » يجب ان تبقى من غير تعريف) ولذلك فكل عنصر من عناصر الاحساس المباشر - او على أقل تقدير كل حالة فردية على رأي ماخ - حاصل على شروط هذا المعيار . والقوانين - بطبيعة الحال - تختلف عن امثلتها الفردية من الناحية المنطقية ، ولو انها استطاعت ان

تكتسب الصفات المميزة الجوهرية لأمثلتها لما غدت قوانين ، ولكن اذا لم تفعل ذلك (وهذا هو مضمون حجة ماخ) وجب رفضها .

نستدل من ذلك ان استجلاء بعض المميزات ووضع احدا لاشياء المميزة محل الصدارة ، يفضي الى تحديد مواقف ميتافيزيقية تفاجئنا بسبب عباراتها المتناقضة (في الظاهر) ونحملنا باستمرار على اعادة النظر في الصعوبات التي احدثتها ، والمواقف الميتافيزيقية مصورة على هذا النحو نتيجة طبيعية - ان لم تكن ضرورية - لنمو تفكيرنا .

كل هذا يفسر الاتجاه الذي يتخذه الميتافيزيقي في انكار (وجود القوانين في الطبيعة) وطبيعة الشك غير المحدود عنده . وقد بين هوم Hume ذلك حين كتب في تاريخ انكلترا History of England « بينما كشف نيوتن فيما يظهر اللثام عن بعض أسرار الطبيعة ، اظهر في الوقت نفسه عيوب الفلسفة الآلية ، فأحاط أسرارها العميقة بذلك الغموض الذي كان وما زال وسيظل يلزمها »^(١) .

فلا نكران لقيام شك غير محدود يتعلق بنتائج التفكير النظري العلمي عامة ويشمل النوع الثالث والاخير من الصعوبات التي ألمحنا اليها من قبل .

لقد ذكرنا انه ينبغي الا تكتفي النظرية - أية نظرية - بربط الحقائق

(١) D. Hume, History of England 1773, vol, 8, P. 332.

والقوانين المعروفة بطريقة منظمة . لأن الجانب الاعظم من النظريات العلمية يرمي الى تعميق فهمنا (للطبيعة) ، فهي تقيم الروابط بين عدد من الحقائق التي لولاها لظلت مفككة ومنفصلة عن بعضها البعض . وتزيد في الوقت نفسه من تعزيز هذه الحقائق ، مرة أخرى تنشأ الصعوبات . كيف استطاعت الروابط النظرية كالقوى الديناميكية من تعزيز الظواهر التي تستند الى أقوى أساس ممكن الا وهو الملاحظة والتجربة ؟ ثم اذا كانت النظريات من شأنها ان تنبئنا بكيفية ترابط الاشياء ارتباطا ظاهريا وسببه ، فكيف امكن ان يتم هذا بواسطة مزيد من الحقائق التي لا بد ان تفتقر من حيث المبدأ الى ذلك النوع من الارتباط الذي كان مفقودا في الحقائق الاصلية ذاتها ؟

ومع اننا قد وضعنا هذه الاسئلة في صيغة ساذجة جدا لبنين أصل المواقف الميتافيزيقية ومصدرها ، ينبغي ان ندرك ان المعالجة الدقيقة (لهذه الاسئلة) ستكشف عن صعوبات حقيقية . وإيضاح هذه النقطة ، نكتفي بذكر مثال واحد . لقد فسر نيوتن بعض حركات الكواكب السيارة المطردة بواسطة عدد قليل من القوانين الطبيعية البسيطة هي قوانين الحركة وبواسطة قانون الجاذبية الذي يتضمن وجود قوة جاذبة عامة بين الشمس والكواكب السيارة عبر الفراغ . وقد كانت هذه النقطة بالذات مدعاة لاعتراضات اساسية . فمثلا اعترض باركلي Berkeley على ذلك وقال ان هذه النظرية ليست في الحقيقة تفسيرا ، لأنه اذا اقررنا ان الحقائق الاصلية المراد تفسيرها ليست الا حقائق ساذجة جرداء (تفتقر الى كل ارتباط اساسي) كانت القوانين التي تفسرها حقائق ساذجة جرداء كذلك ، فهي

« لا تعدو ان تكون قواعد . . . تمسكنا بها في سبيل الحصول على نتائج طبيعية ، فليست الاسباب الفاعلة والغائية موضع بحث آلي^(١) » . وقد يتساءل متسائل : الا يفترض نيوتن وجود شيء يشبه السبب الفاعل الا وهو القوة الجاذبة ؟ يرد باركلي على ذلك قائلاً اننا لا نستطيع ان « ندرس القوى على الاطلاق ، ولا نستطيع ان نعرفها أو نقيسها الا بواسطة آثارها أي الحركات . . . ولا بد ان نعتبر كل ما يقال عن القوى الكائنة في الأجسام سواء اكانت جاذبة أم طاردة مجرد فرضية رياضية وليس شيئاً موجوداً في الطبيعة وجوداً حقيقياً^(٢) » .

يا لها من عبارة تبعث على التشاؤم ! وبطبيعة الحال لا يعني ذلك ان مفاهيم نيوتن في القوة والكتلة والمكان والزمان لا تخلو من ثغرات . ومهما يكن الامر فقد كان نقد نيوتن هذا من العوامل التي ساعدت على قيام الثورة العلمية في القرن الحاضر . يضاف الى هذا ان باركلي كان على حق عندما قال ان مبادئ نيوتن الميكانيكية لم تكن كافية لتفسير عدد لا يحصى من النتائج الاخرى ، منها الكيميائية ومنها الكهربائية . وما يهمنا هنا هو ان نلاحظ الصلة الوثيقة بين هذا النقد التجريبي (الاختباري) واصطناع الحكمة الميتافيزيقية الذي يعتبر حافزاً نفسياً للاول (النقد التجريبي) من ناحية ، ويعمل على رفض كل تفسير اعتيادي للعمليات الطبيعية باعتباره غير واف ولا نهائي من ناحية أخرى . ومما ينبغي التنويه به ان نيوتن نفسه

G . Berkeley , works , ed . Fraser , vol . 3 , Siris , sect , 231 .

Ibid , sect , 234

(١)

اعترف تحت تأثير لا يينز ان لا بد من تفسير القوة الجاذبة من بعيد بافتراض وسط يساعد على حصول التأثير المتصل (المتلاصق) Contiguous Action اما باركلي فقد رفض اعتبار هذا التفسير للحركة لأن « مرونة وسط موحد ليس أقل غموضا (من القوة الجاذبة^(١)) » . وبسبب كونه غامضا هو :

« لا يمكن ان يكون الشيء الآلي سببا . [لانه لا يمكن ان تكتشف] قوة بالتجارب أو الاستدلالات الرياضية التي لا تتعدى النتائج المحسوسة وحركات الاشياء المتحركة والمنفصلة . وقد وجد رجال الفكر انه من الصعب - ان لم يكن من المستحيل - ان يتصوروا أو يفسروا هذه القوى التي قيل انها تنطبع على الاجسام^(٢) » .

لا شك ان هذا النقد ، يقوم فيما نرى على رفض باركلي التفسير الآلي الذي قدمه نيوتن لأنه كان معنيا بمشكلة التفسير بصورة عامة وقد انعكس هذا في اتخاذه نموذجا أو نظيرا اختباريا آخر (للتفسير) ألا وهو العقل Mind أو الروح Spirit . فالعقل وحده في رأي باركلي يستطيع ان يربط (ما بين الاشياء) ويعمل من حيث انه سبب فعال . ويمكن التأكد من صدق هذا المبدأ عندما ندرك اننا نستطيع ان نجد في عقولنا النظر الصحيح للسببية كما هي الحال حين نتصور انفسنا ندفع جسما أو نرفعه . فيقول باركلي :

« لا يمكن ان نفسر الظواهر دون التسليم بوجود آثار عامل غير جسماني

Ibid. sect. 243.

(١)

G. Berkeley, op. cit. sects, 247, 249.

(٢)

يعمل على ربط الاشياء وتحريكها وترتيبها بحسب قواعد ملائمة^(١) .

ولا داعي هنا لنقد هذه الفكرة بالتفصيل . وانما نكتفي بملاحظة انها تقوم بحصر الشك غير المحدود الذي عمل (باركلي) على استشارته في اتخاذ العقل نظيرا خاصا (للتفسير) .

نستنتج من هذه الامثلة ان المبادئ الميتافيزيقية متصلة بالصعوبات التي تنشأ من التأمل في مناهج العلم المنطقية . ومع ان المفاهيم والقوانين والنظريات العلمية ينبغي ان تعد الاساس الطبيعي الذي تقوم عليه ظواهر العالم المحسوس ، نميل الى عكس العلاقة بينهما حالما نفكر في الامر مليا . فلا شك ان القوانين لا تكتشف الا شيئا فشيئا ، وليس بوسعنا ان نتحدث عن ملاحظتها واختبارها كما نتحدث عن ملاحظة واختبار النتائج التي نحصل من جهاز تجربة أو أدوات استخدمت لذلك الغرض . ثم هناك صعوبة أخرى ، وهي ان عددا كبيرا من المبادئ العلمية الرئيسة تشف عن مميزات تجعلها أقرب الى قواعد منهجية اتفقنا على ان نستخدمها في وصف الطبيعة . مثال ذلك ، قوانين نيوتن في الحركة ومبدأ حفظ الطاقة ومبدأ النسبية وما الى ذلك . فإذا أخذنا هذا بنظر الاعتبار جئنا الى القول (كما فعل ادنكتون^(٢) Eddington) الى ان هذه القوانين لا تمدنا بمعرفة بعدية posteriori مستمدة من دراسة النتائج التي تفضي بها الملاحظة ، بل بمعرفة

Ibid. sect. 237.

(١)

A. Eddington The Philosophy of Physical Science, (٢)
1939, P. 24.

قبلية a priori مستخلصة من دراسة منهج الملاحظة دراسة استمولوجية ،
وينبغي ان يلاحظ هنا ان تلك القوانين لا تقوم « في الطبيعة » بل هي « أشياء
من صنع الفكر » (ماخ) .

ولنا ان نشاءل : أليس من المؤكد اننا نلاحظ أو على الاقل نكتشف نظام
الطبيعة السائد في كل الأشياء ؟ اذا صح ذلك واجهتنا المعضلة الآتية : هل
يسوغ لنا ان نقول : اننا نلاحظ ونكتشف هذا النظام أم لا ؟ وهل هو
موجود في الطبيعة أم لا ؟ وربما وصفت هذه المعضلة بأنها نزاع حول ما
يترتب قوله عن مواقف اختبارية معينة ، الا انه ينبغي ان نتذكر انه ليس
بأيدينا القواعد التي تساعدنا على ذلك . وهكذا تضطر ، من حيث لا
نشعر ، الى اتخاذ موقف معين ، واذا كان اختيار مثل هذا الموقف ليس أمرا
كيفيا ، فليس من شك في انه لا يعتمد فيه على العلم أو المنطق اعتمادا
مباشرا . وعلى ذلك كان لموقف ماخ أثر كبير في نقده للنظرية الفيزيائية
المعاصرة مما افضى به الى اعادة تقييم مركز القوانين والنظريات وبصورة
خاصة نقد تعريفات نيوتن للكتلة والقوة والمكان المطلق والزمان المطلق ؛
وقد اشار في كل حالة من هذه الحالات الى ان تلك التعريفات لم تؤد الى
مناهج اختبارية واضحة وكانت لذلك عديمة الاهمية من الناحية العملية .
وهكذا انكر ماخ القوى لافتقارها الى المميزات المنطقية المتمثلة في عناصر
الاحساس ، فلم تكن أساسية بالقدر الكافي .

الحق ان في هذا شيء من الطرافة . ذلك ان باركلي نفى وجود القوى
للسبب ذاته تقريبا . الا انه لم يكتف بتأويل التفسيرات عن طريق الظواهر
المشاهدة باعتبارها عناصر الاحساس الذرية ، بل رأى ان النظرية المثلى

شيء يفوق هذا كله ، فيشق ردها الى عبارات تدور حول القواعد المنظمة للظواهر . هنا بحث باركلي عن « سبب » فعال أو كما قال عن روابط تربط (الظواهر) ربطا حقيقيا . ونتيجة لذلك ولد مبدؤه في الارتباط الكلي شبه العقلي . وهكذا اذا كان باركلي قد انكر القوى عند نيوتن لأنها لا ترتقي الى مستوى والروابط الجوهرية بالقدر الكافي ، فإن ماخ قد رفضها لأنها لا تحاكي العناصر الجوهرية بالقدر الكافي . من هذا يتضح ان الارتباط المنطقي بين البديهية الميتافيزيقية والمبدأ الاختباري ليس وثيقا جدا . ولكن بما لا شك فيه ان التفضيلات الميتافيزيقية في كلتا الحالتين جعلت هذين المفكرين (باركلي وماخ) يدركان ادراكا اعمق طبيعة النظريات الفيزيائية التي تتضمنها .

على اننا نجد بين الفينة والفينة عبارات تمثل تفضيلات ميتافيزيقية كان لها اثر ايجابي ومباشر في تطور التفكير العلمي . فقد تقوم بتوجيه البحث عن أنواع خاصة من القوانين العلمية ذات صبغة معينة . ونكتفي ها هنا بذكر مثال واحد فقط .

اعتقد باركلي - فيما رأينا - انه ينبغي في التفسير الصادقة ان تظهر غاية أو هدفا ما . وكان لا يبتز قبل ذلك بسنوات قد قال ان الحقيقة - كأي نظام رياضي أو علمي - من شأنها ان تظهر « اكثر الفرضيات بساطة واعظم الظواهر غناء »^(١) وبتعبير أدق كل شيء في الطبيعة يقوم فيما يظهر على

G. W. Leibniz, On the Ultimate Origination of Things, (١) ed. Everyman , 1934, p. 34.

« اعتبارات اعظم العظيم وأقل القليل »^(١) . ويمكن ان يعتبر هذا اشارة غير مباشرة الى ان مبدأ الحد الأدنى Minimum الذي اكتشفه لايبنتز مقتنيا في ذلك اثر فرمات^(٢) Fermat . ذا نفع في حل مشكلات البصريات الهندسية . وينطوي هذا المبدأ على التاكيد على ان في الطبيعة مقادير معينة (لم تعرف في أول الامر الا تعريفا غامضا) تتناقص دائما حتى تبلغ حدها الأدنى . وقد آلت التطورات التي اصابته هذه الفكرة فيما بعد الى توحيد النظريات الحركية (الديناميكية) والبصرية والكهروديناميكية توحيدا بديعا . ومن البين ان مبادئ الحد الأدنى عند لايبنتز قامت بدور « النظائر الاختبارية » المهم . ولهذا السبب أصبح لمبادئ الفعل Action Principles (باعتبارها نظائر اختبارية) على أيدي لايبنتز والمفكرين المتأخرين من مويرتيوس^(٣) Maupertuis الى هلمهولتز^(٤) Helmholtz

(١) Leibniz, Discoures on Metaphysics, ed. Lucas and Grant, 1953, Sect. 6. P. 10.

(٢) فرمات Pierre de Fermat (١٦٠١ - ١٦٦٥) رياضي فرنسي مشهور ، وضع بالاشتراك مع بيسكال Pascal اسس نظرية الاحتمال . وهو يعتبر مؤسس نظرية الأعداد الحديثة

(المترجم)

(٣) مويرتيوس Pierre Louis Mpreau Maupertuis (١٦٩٨ - ١٧٥٩) فيلسوف ورياضي افرنسي مشهور .

(المترجم)

(٤) هلمهولتز H.L.F. Helmholtz (١٨٢١ - ١٨٩٤) عالم فيزيائي ألماني ،

وبلانك Planck مثل هذه القوة التفسيرية الهائلة . اما الاكتشاف المتأخر بأن هذه المبادئ انما هي تعبيرات رياضية عن حقائق يمكن ان تتحول بالمعادلات الى وصف « السببية الآلية » الاعتيادية وانها ليست مبادئ « الحد الأدنى » دائما بل قد تتضمن « حدا أعلى » ، فلا ينتقص ابدا من أهمية النظريات الميتافيزيقية الاصلية التي دارت حولها مع ان ذلك قد يؤدي بطبيعة الحال الى تغيير رأينا في مكانتها .

وقد وصف فتكنشتاين الموقف وصفا طريفا في قوله في كتابه رسالة منطقية فلسفية « ساورت الناس في الحقيقة فكرة انه لا بد من وجود « قانون الفعل الأدنى » Law of Least Action قبل ان يعرفوا صيغته تماما^(١) » وبهذا المعنى يمكننا ان نقول : لقد كانت لديهم معرفة قبلية على الاقل بإمكان وجود قانون ذي صيغة معينة ومن هذا نخلص الى انه لا تتوفر لدينا أفضل البيانات الممكنة للاعتقاد بمثل هذه القوانين وحسب ، بل اننا نعرف ان هذه القوانين أساسية . وقد اتخذ الناس الميتافيزيقا وسيلة لاسباغ معنى منطقياً على هذا المطلب .

اشتهر بنظريته في طبيعة الضوء . كما انه ساهم في حقول حفظ الطاقة والديناميكا المائية والميكانيكا الكهربية وغيرها .

(المترجم)

L. Wittgenstein, Tractatus Logico Philosophicus, 1933, (١) sects, 6. 3211. 6. 322 6. 34.

الفصل الخامس

المتافيزيقا والتاريخ

METAPHYSICS AND HISTORY

لا شك في أننا قد ألفنا اسئلة مثل : « من انتصر في معركة واترلو ؟ » و « ما هي أسباب الحرب الاهلية في انكلترا ؟ » وكلها تدور حول شخصيات تاريخية ووصف الاعمال التي قاموا بها واسبابها . ومن البين ان الاجابة عن مثل هذه الاسئلة أمر عسير لا يتم الا باللجوء الى البيانات والمصادر التاريخية - وهي أهم وظيفة يضطلع بها المؤرخون .

على ان انواعا أخرى من الاسئلة تدور حول التاريخ كذلك . فقد نرغب مثلا في البحث عن الطرق التي يستخدمها المؤرخون في مناقشة الاسئلة التي تقدم ذكرها واشباهها والقول الفصل فيها . لذلك قد نتساءل : كيف يختار المؤرخون البيانات المتوفرة لديهم ويفسرونها ؟ وما هي الحجج التي يستخدمونها للتدليل على صحة النتائج التي يتوصلون اليها ؟ وماذا يعني المؤرخون ببعض احكامهم ؟ وما هي الامور التي يلتزمون بها ؟ ومن هذا يتضح ان هذه الاسئلة تتعلق بمنطق التاريخ ومناهجه ، فهي لا تبحث في التاريخ باعتباره سلسلة من الحوادث بل في التاريخ من حيث انه مجموعة من أقوال المؤرخين وجهودهم في سبيل تفسير الحوادث التاريخية ووصفها .

على ان نوعا ثالثا من الاسئلة قد يواجهنا مما لا يدور حول حوادث تاريخية معينة ولا حول المنهج التاريخي ، بل يتعلق بالعملية التاريخية من حيث هي كل . ولذلك نلاحظ الناس بين الفينة والفينة يتساءلون : هل يسعى التاريخ على العموم الى تحقيق هدف أو غرض معين ؟ وهل يشكل التاريخ نسقا ملتصقا متوافقا ؟ وهل تتحكم قوانين كلية في اتجاهه وتطوره ؟ وهل يمكن تعقله وفهمه ؟ وبما هو جدير بالذكر ان هذه الاسئلة وما جرى مجراها قد افضت الى نشأة النظريات الميتافيزيقية في التاريخ ، ولذلك ستكون هذه الاسئلة - والاجوبة التي استدعتها - موضع اهتمامنا الرئيسي في هذا الفصل .

على ان من الخطأ القول ان كل الاسئلة التي تدور حول العملية التاريخية من حيث هي كل تؤول الى الميتافيزيقا . اذ ان بعض النظريات التاريخية قد صيغت بلغة تدل على ان ممحايها أرادوا بها ان تكون اختبارية (تجريبية) . وبكلمة أخرى ، ان هذه النظريات فيما يبدو تستند الى حقائق تاريخية عرفناها من خلال كتابات المؤرخين انفسهم وتحقق بواسطتها . فمثلا قد يكون من أهداف النظرية ان تبين ان سير التاريخ يعكس اتجاهها معينا كزيادة السيطرة العلمية على الطبيعة أو زيادة التنور العقلي والروحي أو تحقيق مثل سياسية معينة مثل الحرية الفردية . وانا لنجد نظرات كهذه عند عدد من رجال الفكر في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر - نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر كوندورسيه^(١) Condorcet وهربرت

(١) كوندورسيه Condorcet (١٧٤٣ - ١٧٩٤) فيلسوف فرنسي وعضو أكاديمية

سبنر^(١) Herbert Spencer . يضاف الى هذا ان نظرية حديثة في التاريخ كالتى يبسطها البروفسور توينبي^(٢) Professor Toynbee في كتابه دراسة التاريخ A Study of History قد تقرّ وجود قوانين تحدّد - فيما زعم - نمو الحضارات وانحطاطها . ويرى البروفسور توينبي ان طريقته « استقرائية » أي ان القوانين التي وضعها قد استقرئت من دراسة تطور الثقافات المختلفة دراسة مستفيضة وحققت بواسطتها . وسواء أكان النهج الذي يتخذه توينبي سليماً أم لا وسواء أكانت كتابته للتاريخ منسجمة مع

العلوم في باريس . رأى ان التاريخ نتاج العقل البشري وقال ان النظام البرجوازي معنول وطبيعي .

(المترجم)

(١) هربرت سبنر Herbert Spencer (١٨٢٠ - ١٩٠٣) عالم اجتماعي ونفسي انكليزي وأحد مؤسسي الوضعية . حاول تطبيق نظرية داروين في التطور على مجالات الحياة المتعددة : الاخلاقية والاجتماعية والنفسية وغيرها . وقد فسر الحياة والعقل والمجتمع تفسيراً آلياً وذلك بواسطة المادة والحركة والقوة .

(المترجم)

(٢) توينبي A. J. Toynbee (١٨٨٩ - ١٩٧٥) مؤرخ وعالم اجتماع انكليزي يستبدل بمفهوم التقدم الاجتماعي نظرية الدورات Theory of Cycles . ويرى ان التاريخ العالمي يسير في دورات عظمى من النمو والانحطاط وهو المجموع الكلي للحضارات المتعددة التي تمر بأدوار واحدة : الولاة والنمو والسقوط والانحلال فلا نفراض .

(المترجم)

هذه المبادئ أم لا - فتلك مسائل أخرى لا علاقة لها بطبيعة الحال بالموضوع الذي نتناوله ها هنا . بيت القصيد ان نظريته هذه قد اعتبرت اختبارية خاضعة لاختبارات الحقائق المشاهدة ولها وحدها .

فالسؤال الذي يتبادر الى الاذهان - اذن - هو : ما الذي يميز التفاسير الميتافيزيقية للتاريخ عن امثال تلك التفاسير ؟ للاجابة عن هذا ندرس مثالا بسيطا . رأى كانت Kant ان التاريخ يكشف عن تحد يمكن وضعه في شكل سؤال هو : ما هي السمة العقلية التي تتحكم في سير التاريخ باعتباره عملية واحدة ؟ واعتقد ان حل هذا السؤال يقوم في دراسة الخلق (الطبع) البشري Human Character . وخلص منه الى ان الطبيعة قد غرست في الكائنات البشرية بعض الطاقات التي لا مناص من ان تنكشف تماما وبما (يكفل) تحقيق غايتها مع مرور الزمن . ولذلك يجب ان نقول ان التاريخ يتحرك وفق (سمة الطبيعة) في سبيل تحقيق تلك الطاقات الكامنة . هذا وقد اعتقد كانت ان سير التاريخ الى هذا اليوم يشهد بصدق هذا التأويل .

ومن الامة يمكن ان نلاحظ ان كانت لا يكتفي - فيما يظهر - بتعيين اتجاه حقيقي للتطور التاريخي . والدليل على ذلك انه رأى أولا من الضروري ان يكون هذا الاتجاه على النحو الذي هو عليه ، وثانيا ، انه يستطيع ان يفسر سبب كونه ضروريا . ومع ذلك فقد كان التفسير الذي جاءنا به غريبا .

ولكي نبين وجه الغرابة في هذا التفسير ، ندرس الطرق التي

نستخدمها أحيانا في تفسير الحوادث بواسطة خطط الكائنات العاقلة أو سياستها . لقد كان يتحدث وكأن الطبيعة Nature كائن عاقل وكأن ما يصدر عنها دالا على خططها في الانواع البشرية . ومثل التفسير الذي يستخدمه كانت فيما يبدو مثل التفسير الذي نستخدمه نحن لو سئلنا مثلا عن سبب نمو بعض النباتات في حقل معين . السبب في هذه الحالة قد يكون ان بستانيا قد زرعها في هذا الحقل لكي تصبح في الوقت المناسب نوعا من الازهار . لكن هذا التفسير يختلف عن تفسير كانت من نواحي متعددة . فأولا انه يعتمد على المعرفة الاختبارية لعدد من الحقائق - كوجود البستاني الذي عرفنا عاداته واعماله بواسطة الملاحظة والتجربة - في حين لا نستطيع ان نجد نظيرا لذلك في أقوال كانت الغامضة في الطبيعة وفي أهدافها المزعومة . يضاف الى ذلك ، بينما نجد من المعقول ان نسأل هل تحققت أهداف البستاني أم لا بملاحظة نمو الازهار لأننا نستطيع ان نقارن ما شرع في القيام به بما حققه بالفعل يتعسر علينا ان نتبع خطط الطبيعة لتطوير الانواع البشرية في معزل عن ملاحظة كيف تحققت الطاقات والمواهب البشرية عبر التاريخ بالفعل ، واذا كان الامر كذلك ، ضعف رأي كانت القاضي بأن التاريخ قد حدث بالضرورة على النحو الذي كان لأنه قد « صمم » على ان يكون كذلك . فالظاهر ان تفسير كانت للتاريخ لا يعدوا الا قليلا اعادة التعبير عن الحقائق التي جاء ليفسرها . اذ قد وضعها بلغة غريبة واطلق عليها « تحقيق مقاصد الطبيعة » .

ولم يكن كانت نفسه غافلا عن بعض هذه الامور . فقد اعتقد انه لم يبرهن على صحة تفسيره للتاريخ ، وليس بوسع احد ان يبرهن عليه . لكن

الفلاسفة الآخرين كانوا أقل حذرا من كانت . وقد استحوذت نظريات ميتافيزيقية كثيرة في التاريخ على اعجابنا لأنها استطاعت في الظاهر ان تستخدم طرقا مقبولة ومألوفة لتبرير نتائج مثيرة تتعلق بطبيعة العملية التاريخية . فرأت بعض هذه النظريات ان التاريخ لم يتخذ اتجاهها معينا وحسب ، بل لم يكن بد من اتخاذه . وما ساعد الميتافيزيقي - فيما زعم - على التنبؤ بالمستقبل كذلك انه استطاع ان يفسر الماضي باعتباره تطورا ضروريا (لما قبله) . وفي اعقاب هذا جاءت النظرة القائلة ان التاريخ حصيلة قوى جائرة خفية . وهذه النظرية تحمل الاعجاب والسخط تبعاً للظروف . غير ان أحدا لا يستطيع ان يغيرها أو يقف في سبيلها .

فإذا كانت هذه التفسيرات التي جاء بها الميتافيزيقيون للتاريخ لا تفيدنا بحقائق جديدة ، بل بطرق جديدة لوصف الحقائق القديمة ، كان لنا ان نسأل : ما الداعي اليها ؟ والجواب في رأي كانت ليس عصياً . لأنه اذا قلنا ان التاريخ يسير الى غايته ، امكنا ان نستخدم الفاظا اخلاقية في تناوله . وتتضمن فكرة كانت ان حوادث التاريخ لا يمكن تبريرها الا اذا كان سير التاريخ تعبيرا عن خطة هدفها خلق وضعية حسنة من الناحية الاخلاقية ، وحرى بالملاحظة ان مثل هذه النظريات القائلة : ان التاريخ يسير وفق قوانين اخلاقية ، أو انه محقق للعدل ويكافئ من يعترفون بسلطانهم ويعاقب من يمجحدونه - أقول ان هذه النظريات كانت سلوى للميتافيزيقيين الذين نادوا بعقائد سياسية واخلاقية معينة كما كانت أداة نافعة لتحقيق أهداف بعض رجال السياسة والاعلام .

على ان شيئا آخر تجدر ملاحظته يتعلق بالنظريات التي نحن بصدد

دراستها . فقد اشرنا في مقدمة هذه المقالات الى ان من شأن الميتافيزيقا ان تختار بعض الافكار والمفاهيم وتستخدمها في ميادين لا نستعملها فيها عادة - وان السخط الذي يديه الميتافيزيقي على كثير من المعتقدات التي تؤمن بها عادة - سواء أكانت معتقدات يقرها الحس العام السليم أو عبارات وفرضيات علمية تاريخية- هذا السخط يمكن رده - جزئيا على الاقل - الى عدم توافق هذه المعتقدات من حيث هي كل مع النموذج الذي اختير للوصف أو التفسير . ولذلك طالب ديكارت الذي كان معجبا بقطعية التفكير والبرهان الرياضي بضرورة وضع معرفتنا بالطبيعة في شكل نظام استنتاجي صارم يستند الى مقدمات بيّنة بذاتها وفوق كل شك . وكذلك نادى فلاسفة آخرون بأنه لا يكفي في دراسة التاريخ ان نكشف الروابط القائمة بين الحوادث والظروف الخاصة بل ولا يكفي ان نبين انها تمثل - أو تؤلف جزءاً من - نزعة أو اتجاه عام في سير التاريخ . وتطبيقا لهذه النزعة اختار بعض الفلاسفة نموذجا يعكس هذا التفسير - كالتفسير الغائي الذي ينطوي على ان افعال الشخص الفرد تعد تعبيراً عن سياسة يتبناها أو خطة يرسمها - ويملو الفكرة القائلة : ان العملية التاريخية في مجملتها ينبغي ان نفهم في حدود هذا النموذج اذا اريد فهمها اطلاقاً . تلك هي الطريقة الوحيدة التي نستطيع بواسطتها ان نبين ان العدد الهائل من الحوادث المنفصلة التي يبحثها المؤرخون بحثاً عابراً يؤلف وحدة مقبولة ومعقولة .

ولا شك ان الاعتقاد بالغائية في تفسير الامور وان كل حادث يرمي الى تحقيق غرض معين أو ينسجم مع خطة معينة اعتقاد قديم جداً . وفوق هذا

ينبغي الا يثير دهشتنا تطبيق مثل هذه الافكار على سير التاريخ في مجملته .
ومن الناحية الاخرى يجدر بنا ان نلاحظ ان مثل هذه التفسيرات كان لها دور
كبير في تسجيل التاريخ ولا سيما ما يتعلق منه بسلوك اشخاص معينين في
ظروف معينة . ومعروف ان الاهتمام بالتاريخ احتل محل الصدارة في اواخر
القرن الثامن عشر واولائل القرن التاسع عشر حين أخذت الدراسات
التاريخية تسير في اتجاهات جديدة لم تكن في الحسبان وأصبحت ذات
مغزى جديد . لذلك كان من الطبيعي ان يتقدم الفلاسفة - الذين هاهم
هذا التقدم - ليسبقوا على التفسيرات التي عرض لها المؤرخون أهمية
خاصة . وهكذا وجدناهم لا يكتفون باعتبار الافكار التاريخية النموذجية
مفتاحا لتفسير العملية التاريخية كلها ، بل عدّوها كذلك مفتاحا لتفسير
الحقيقة على العموم . وهكذا نشأت الميتافيزيقا التاريخية على مستويين
مختلفين ، فأولا نشأت (الميتافيزيقا التاريخية لمحاولة تفسير التاريخ كله أو
تنظيمه على أساس فكرة واحدة تستخدم عادة في تفسير حوادث معينة في
التاريخ - وثانيا نشأت كمحاولة لتفسير الحقيقة كلها في ضوء مثل هذه
الفكرة . وقد رأى هؤلاء الفلاسفة ان النظريات التي تتعلق بتفسير العملية
التاريخية تلزم بالضرورة عن نظريات الحقيقة هذه .

فهيكल Hegel مثلا اخلّ بنظرية معينة في تفسير العملية التاريخية .
لكن « فلسفته في التاريخ » لا تؤلف الاجزاء - وان كان أساسيا - من نظام
اوسع يشمل فلسفته في العقل والطبيعة . وكان هذا النظام معقدا غاية
التعقيد ومنسجما مع المنهاج الذي نادى به فيلسوف ألماني آخر هو شوبنهاور

« Schopenhauer » وزعم انه المنهاج الوحيد الممكن في الفلسفة ،
ويتمثل في استخدام مفاهيم عامة جدا « للاعتراب عن طبيعة العالم اعرابا
تاماً ودقيقاً » . وما اسبق على نظام هيكل اهمية بالغة من وجهة نظرنا هذه
ان تلك « المفاهيم العامة جدا » تقوم على افكار ذات طابع تاريخي .

ولعل أفضل طريقة لدراسة نظام هيكل في العالم مقارنته بالانظمة
الميتافيزيقية الاخرى التي كانت مستوحات من الرياضيات والعلم وليس من
التاريخ . وما ينبغي ان نذكره هنا ان هيكل اعتبر الرياضيات « ضرباً ناقصاً
من المعرفة » ورأى ان اثرها في الفلسفة كان كارثة عليها . فما السبب؟

الجواب هو ان هيكل اعتقد أولاً ان الرياضيات تفترض صحة القوانين
المنطقية الاساسية كالقانون القائل باستحالة ان يكون شيء ما ليس اياه ،
ولا بد ان يكون ما هو . لكن العالم - من وجهة نظر هيكل - لا يطابق في
جوهره « هذه القوانين : اذ انها لا تمثل حقيقة الاشياء القصوى . من هذا
رأى هيكل ان الفلاسفة السابقين اخطأوا القول عندما اتخذوا الرياضيات
نموذجاً يتوجب على معرفتنا بالعالم احتذاؤه ، دون ان ينكر على هذا النوع
من المعرفة فوائده الحقيقة .

والآن ما بال الزعم الذي نادى به هيكل من ان قوانين المنطق التقليدية

(١) شوبنهاور A. Schopenhauer (١٧٨٨ - ١٨٦٠) فيلسوف ألماني

واشهر مؤلفاته العالم من حيث هو ارادة وفكرة .

(المترجم)

على نحو من الانحاء لا تصدق على طبيعة العالم ، أو بتعبير هيكل ان الحقيقة « متناقضة » من حيث الاساس . ومع ان هذا الزعم ينطوي - فيما نعتقد - على عدد من الافكار المختلفة ، الا انه يمكن ان نوضح جزءاً من معناه اذا أخذنا مفهوم التغير بنظر الاعتبار ، فحين تتغير الاشياء أو تستحيل ، تكون في لحظة واحدة مختلفة عما ستكون عليه في اللحظة القادمة : ولكن وصفنا لشيء متغير في صور متغيرة وفي أوقات مختلفة لا يستتبع بطبيعة الحال اننا نناقض انفسنا ، ولا ان الشيء ذاته متناقض . على ان اشباه هذه الامور قلما تقف في سبيل الميتافيزيقيين ، بل ساع لنا ان نقول : ان هيكل يعبر - بطريقة المضللة - عن وجهة نظر في العالم ترى كل شيء فيه خاضعا للحركة والتقلب والانتقال الدائم . والحقيقة انه اذا اردنا ان نفهم العالم توجب علينا - فيما يرى هيكل - ان نعهده عملية تطور متواصلة وليس شيئاً ثابتاً مستقراً . وهذا هو الذي حمل انكلز^(١) Engels على ان ينسب الى هيكل الفكرة العظيمة الاساسية من انه ينبغي ان لا يفهم العالم باعتباره مركباً من أشياء جاهزة بل من حيث انه مركب من عمليات .

ومهما يكن الامر ، فقد أخذ هيكل على عاتقه ان يبين ان تركيز الاهتمام على الرياضيات يشكل خطراً على الفلسفة ذاتها ، اذ ان استخدامها في وصف العالم - على نحو ما يفعل الفيزيائيون مثلاً - لا بد ان يقتصر على

(١) انكلز F. Engels (١٨٢٠ - ١٨٩٥) فيلسوف ألماني اشترك مع ماركس في . نزع الماركسية أو المادية الجدلية والتاريخية .

صفات الأشياء القابلة للقياس فقط - كحجمها ووزنها وما الى ذلك .
بكلمة اخرى تعتبر الرياضيات دراسة الأشياء من وجهة نظر كمية صرفة .
وقد نادى فلاسفة كديكارت ممن يمثلون هذا الاتجاه بأن الامتداد أو الشكل
يؤلف ماهية الأشياء . ولكن الكمية - في رأي هيكل - لا تمت بسبب ما الى
ماهية الأشياء .

نتساءل الآن : ما الذي حمل هيكل على الاخذ بهذه الفكرة ؟ الجواب
هو ان فلسفة هيكل تقوم على الايمان بأن الحقيقة ليست في آخر المطاف مادية
بل عقلية . ولذلك فمن الخطأ ان نقول ان مفهوم الكمية ينطبق على طبيعة
العالم الداخلية أو الحقيقية . لأنه اذا كان من الجائز ان نتكلم عن شكل أو
وزن الأشياء المادية ، فلا يجوز ان نتحدث - مثلاً - عن قياس العقول أو
وزن الافكار بأي معنى حرفي . والواقع ان هيكل اعتقد انه ينبغي ان نفهم
تركيب الحقيقة ونفسره في حدود مفاهيم الفكر **Thought** أو الفكرة
Idea . وعلى هذا فالعالم - في نظر هيكل - عملية من نوع معين . وهو
ليس عملية عمياء أو غير واعية كالذي نشاهده في سير بعض الظواهر
الطبيعية - مثل نمو النباتات ؛ بل هي اشبه بسلسلة من الافكار أو الحجج
التي تتطور كل مرحلة فيها عن (أو تنشأ من) المرحلة التي تقدمتها . وقد
حملة هذا على القول انه لا مناص من اعتبار العالم تعبيراً عن فكرة متطورة
أو عقل متطور ، وهو نظام عقلي يقرر ذاته بذاته ويواصل الحركة الدائمة
وفقاً لقوانينه الداخلية الخاصة .

نستنتج من ذلك ان ميتافيزيقا هيكل تستند الى مفهومين رئيسيين هما :
الاول ان الحقيقة عملية متطورة والثاني ان الحقيقة في جوهرها عقلية . واذا

كان في هذين المفهومين شيء من الغرابة كما يبدو لاول وهلة ، فأنه من الممكن ان نجعلهما أقل غرابة أو على الأقل ايسر على الادراك اذا نظرنا اليهما من جوانب معينة من التفسير التاريخي . فهيكل مثلاً يريدنا على ان نؤمن بأنه ، لكي نفسر شيئاً من الاشياء ، ينبغي ان نعتبره جزءاً من عملية عقلية . فاذا أراد المؤرخ - أي مؤرخ - ان يفسر حادثة معينة أو وضعاً معيناً ، حاول في الغالب ان يظهر كيف تلتئم تلك الحادثة أو الوضع مع حركة أو اتجاه أو نموذج أعم أو تؤلف جزءاً منها أو تمثلها . وهكذا يمكن القول ان تأويل الحوادث التاريخية أو تفسيرها بردها الى عمليات التطور يشكل جزءاً هاماً من الطريقة التاريخية . وليس هذا كل ما في الامر . فإن الدراسات الانسانية عامة والتاريخ خاصة تتميز - كما زعم البعض - عن أنواع المعرفة الاخرى بكونها تبحث في موضوعات ذات طابع خاص . ذلك ان الوقائع التي تتناولها هي في الاصل حصيلة افكار وسياسات ودوافع وما اشبه ذلك ، أو تعبير عنها ، لكن الامر ليس كذلك في حالة الحوادث التي يعالجها الفيزيائي أو الكيميائي مثلاً . نخلص من ذلك الى ان في وسع المؤرخ ان يفهم موضوعه ويفسره على نحو ايجابي خاص ، لأنه يستطيع ان ينفذ الى اعماق شخصياته ويتصور نفسه في ظروفهم فيدرك أهدافهم ونواياهم .

هكذا ندرك ان فكرة هيكل تعكس ، من هذه الزاوية ، خاصيتين مهمتين من خصائص دراسة التاريخ فيهما شيء من الغرابة . وسبب ذلك ان هيكل يزعم ان الحقيقة عموماً - لا الحوادث التي يعالجها المؤرخون فقط - ينبغي وصفها وتفسيرها في حدود عمليات التطور . ويزعم كذلك ان

الحقيقة عموماً - لا افعال الكائنات البشرية وسلوكهم فقط - ينبغي ان تعتبر تعبيراً عن روح عاقلة . وبكلمة أخرى رأى هيكل ان معرفة ما من اجله تكون الحقيقة « حقاً » تقوم في ادراك المبادئ العقلية التي تتحكم في حركتها ، وهذا أمر ميسور لدينا لاننا بانفسنا كائنات عاقلة ، ثم ان الفكر يطابق الحقيقة الواقعة لأنها في حد ذاتها فكر أيضاً .

من هذا نرى انه يمكن القول بأن نظاماً متافيزيقياً كنظام هيكل يظهر - على نحو غريب - بعض الصفات المألوفة في كتابة التاريخ وطريقته . وفوق هذا نعتقد ان لهذه النظريات وظيفة بناءة .

فأولاً ، من الاهمية بمكان ان نشير الى ان امثال هذه النظريات لا تعكس بعض المميزات حسب بل تختار منها كذلك . فنجد هيكل - مثلاً - يقدم تفسيراً معيناً على اشباهه التي يستخدمها المؤرخون ويؤكددها أصحاب النظريات التاريخية الآخرون - وبخاصة ماركس - . واذا صح القول ان ماركس وانكلز لم يضعوا نظاماً متناسقاً على نحو ما فعل هيكل بل أخذ بكثير من أفكاره الرئيسية ، فإنها يختلفان عنه من اتخاذ المادة لا العقل المفهوم الاساس الذي ينبغي ان يؤول كل شيء في حدوده ويفسره . والسبب في ذلك رغبتهم ان لا تكون التفسيرات متصلة بمقاصد الناس وافكارهم وخططهم بل بأسباب « خارجية » تعمل فيهم من الخارج وتحدد افعالهم .

ولا شك ان التأكيد على نوع معين من التفسير الذي يستخدمه المؤرخون على حساب تفسيراتهم الأخرى معناه تفضيله عليهم . ولكن بعد ان أثر ماركس التفاسير السببية على التفاسير الغائية مضى في اظهار

الاهمية النسبية لانواع الاسباب المختلفة . فقال ان العوامل الفعالة النهائية في التغير التاريخي اقتصادية وتقنية كالتقدم الحاصل في الوسائل التي يستخدمها الناس في الانتاج لسد حاجاتهم والعداء الطبقي والتناقضات الناتجة من هذه وتلك . ولذلك فحين شرع ماركس في تفسير تبوء نابليون الثالث عرش فرنسا لم يصب اهتمامه على ما جاء به الرجال الذين اشتركوا في هذه الحادثة من أفكار وما اعلنوه من أهداف ، بل عني بصورة رئيسة بالظروف الاقتصادية والتركيب الطبقي للمجتمع الفرنسي آنذاك التي حددت - فيما اعتقد - سلوكهم في آخر المطاف . من هذا نستطيع القول ان ماركس يقدم اقتراحات عن كيفية كتابة التاريخ . وليس من شك في ان هذه الاقتراحات اثرت اثارا بعيدة في تناول المؤرخين لمادة بحثهم ، ونبهتهم الى الاقلال من الالتفات الى الجوانب المثيرة من المفهوم المادي للتاريخ . ولا بد ان نذكر هنا ان وضع حد فاصل بين العناصر الميتافيزيقية والعناصر التجريبية في نظرية ماركس من الصعوبة بمكان . والسبب في ذلك انه لا يمكن الحكم على فائدة اقتراحات ماركس أو توصياته الا بتجريبيها - وتلك هي مسألة تجريبية . ومن الناحية الاخرى قد يقال انه في الحالات التي لا تنطبق عليها هذه النظرية المقترحة انطباقاً تاماً ينبغي البحث عن أسباب اقتصادية اعمق تكون البيئة الوحيدة عليها هذه النظرية التي تزعم « ضرورة » وجودها . وعند ذاك يجوز لنا ان نقول ان قول ماركس هذا لا يمت الى الواقع الخالص بصلة .

وقد تكون الميتافيزيقية التاريخية مثمرة على نحو آخر . اذ حين اقام الميتافيزيقيون الانظمة (الميتافيزيقية) التي تنطوي على توسيع معاني كلمات

مألوفة معينة وحين استخدموا كلمات قديمة للتعبير عن مفهومات جديدة واسعة اقترحوا أحيانا طرقا جديدة لوصف مادة التاريخ وتنظيمها . ويمكن ان نضرب باستخدام هيكل لكلمة « مبدأ » مثلا على ذلك . لقد تحدث هيكل وكأن كل مرحلة في عملية التطور العقلي التي تكوّن العالم خاضعة لمبدأ ، وقد طبق هذه الفكرة على التاريخ البشري الذي يؤلف جزءا من هذه العملية على نحو طريف . ذلك ان هيكل قد خص كل دور من أدوار التاريخ البشري بمبدأ معين يعمل - فيما يقول - على « تحديد المميزات العامة لديانة ذلك الدور ونظامه السياسي وأخلاقيته ونظامه القانوني وعاداته بل وعلموه وفنونه ومهاراته الفنية » . وهو بذلك اعرب عن الفكرة القائلة باستغراق طابع معين لمظاهر الحياة الثقافية في فترة معينة وان من المفيد في الغالب ان نفسر التاريخ في عصر أو فترة معينة في ضوء مفهوم رئيس واحد خاص . يضاف الى ذلك ان كثيرا من المؤرخين المحدثين من رانكة^(١) Ranke حتى الوقت الحاضر ما زالوا يرون امكان وصف العهود التاريخية المختلفة بواسطة أفكار معينة كالبروتستانتية Protestantism أو الرأسمالية Capitalism أو التحررية Liberalism وغيرها « وعدها تعبيرا عنها . لقد كان هيكل أول من اظهر معالم هذه النظرية جلية واضحة وان كان لم يتدعها .

وقصارى القول ان النظريات الميتافيزيقية في التاريخ تشبه رسوما بيانية

(١) رانكة Leopold von Ranke (١٧٩٥ - ١٨٨٦) مؤرخ الماني مشهور .
(المترجم)

في بعض النواحي . وكما ان الرسوم البيانية لا تمثل الاشياء على نحو ما نكون في الحقيقة ، بل تبرز مميزات معينة منها وتستبعد أخرى ، كذلك يعرض الميتافيزيقيون التاريخيون صورة بيانية لا يظهر فيها سوى بعض المفاهيم والافكار المعينة . فقد تنير النظريات الميتافيزيقية في التاريخ الطريق أو توحى به - شأنها في ذلك شأن الرسوم البيانية ، ولكن اعتبارها تصويرا شاملا للحقيقة دون ان تغفل عن شيء قد يوقعنا في الحيرة او يقودنا الى السخف .

الفصل السادس

المتافيزيقا والاخلاق

METAPHYSICS AND ETHICS

ينظر الفلاسفة المحدثون بكثير من الريبة الى فلسفة الاخلاق . ونقصد بالفلاسفة المحدثين والفلسفة الحديثة النزعة الحالية من الاختبارية التقليدية التي تعرف بالتحليل اللغوي Linguistic Analysis - ومع ان جانباً كبيراً من حديثنا ينصب على نقد التطورات المتأخرة من الاختبارية التقليدية ، فإن تلك الانتقادات - فيما نعتقد - تثبت منها كذلك . ولكي نفهم الفلسفة الاخلاقية الراهنة ينبغي ان نرجع الى تاريخها ابتداء من الوقت الذي وضع فيه جي . اي . مور^(١) G.E. Moore حدا فاصلاً بين مسألتين هما : ما هي الاشياء الخيرة ؟ وماذا تعني كلمة « خير » Good ذاتها ؟ وقد ذكر مور أشياء مهمة كثيرة تتعلق بالسؤال الثاني ، ومما قاله في هذا الشأن : ان كلمة « خير » غير قابلة للتعريف ، وأدى اخفاق الفلاسفة المذكورين في التمييز بين هذين السؤالين الى وقوعهم في الخطأ وذلك حين أخذوا بتعريف « خير »

(١) جي . اي . مور G.E. Moore (١٨٧٣ - ١٩٥٨) احد فلاسفة الانكليز الواقعيين وكان استاذ الفلسفة العقلية والمنطق في جامعة كامبردج . وقد حمل بشدة على المثالية وعمل على دحضها في مجال الميتافيزيقا ونظرية المعرفة والاخلاق .

(المترجم)

او « قِيم Valuable في اطار شيء غير قِيم أكان هذا الشيء طبيعيا كاللذة Pleasure أم ميتافيزيقيا كالعقل Rationality فاذا كان في استطاعتنا ان نشير الى اللذة أو الى العقل - ي اجابتنا عن السؤال : ما هي الاشياء الخيرة ؟ - فليس في وسعنا ان نشير اليهما في الاجابة على السؤال : ما هو الخير ذاته ؟ ولقد اقنع مور القراء بصحة مقولته هذه : اذا كانت قضية مثل : « كيت وكيت خير » موضع بحث ، امكننا ان نتساءل دائما « وهل ان كيت وكيت خير في الحقيقة ؟ » وبكلمة أخرى ، نستطيع ان ننسب مفهوم « خير » الى أي شيء كائنا ما كان أو نرفعه عنه ، وبذلك لا تؤلف الاشياء التي ينسب اليها جزءاً من معناها .

لقد احدثت حجة مور البسيطة تغيراً شاملاً في نظرتنا الفلسفية الاخلاقية . فقد كان من نتائجها ان تحولت المسألة الاخلاقية الرئيسة من التساؤل عن : « ما هي الخيرة » goodness « ؟ » - حيث كان الجواب قائماً فيما يظن في اكتشاف تركيب الكون الازلي الحقيقي - الى التساؤل عن : ما هي عملية « التقييم » valuing « أو الاطراء » commending - حيث اقتضى الجواب البحث عن الامور المشتركة عند الناس في كل العصور والمجتمعات في حال نسبتهم قيمة الى شيء من الاشياء . ولا بد ان نشير الى ان الكلمات « ينسبون قيمة الى » تدل على هذا التغير . فلم يعد الفيلسوف اليوم يبحث في الخير The Good بما هو شيء حقيقي أو متعالى (عصي على الادراك) Transcendent بل يحلل فعاليات الناس المألوفة وهم يسبقون قيمة على الاشياء . وعلى هذا نستطيع - اذا شئنا - ان نضع هنا حدا فاصلاً بين الاخلاق الميتافيزيقية (القديمة) والاخلاق الحديثة .

على ان مور لا يمكن ان يعد من فلاسفة الاخلاق المحدثين مطلقا لانه مع اشارته الى ان « خير » ليس اسما آخر (أو مرادفا) لاية صفة أخرى سواء أكانت طبيعية أم ميتافيزيقية ، لم يستطع ان يتخلص من الاعتقاد بأن « خير » اسم لصفة بسيطة غير طبيعية هي « الخيرية » تقوم في مواقف حاصلة معينة - وهكذا فمع انه من الممكن ان يكون للقضية « كيت وكيت خير » دلالة ، لا تكون صادقة الا اذا اتصف كيت وكيت بصفة الخيرية .

وقد حذا الفلاسفة حذو مور في التفرقة بين هذين السؤالين وفي نهجه التحليلي اللغوي . فرأوا ان المسألة الاساسية في الاخلاق هي : ماذا تعني كلمة « خيرية » ؟ ولم يقدموا جوابا على السؤال : « ما هي الاشياء الخيرة ؟ » وقد بين هؤلاء الفلاسفة ان ذلك الموضوع لا يعالجه امثالهم وانما رجال هم دعاة الاخلاق . وبعد هذا طرأت تطورات سريعة على مفهوم كلمة « خير » (كان سببها المباشر) نظرة التحقق في المعنى التي دخلت ميدان الفلسفة من جانب العلوم الطبيعية وتركت اثرا كبيرا في الاخلاق . فإذا كان معنى القضية - أية قضية - هو طريقة التحقق (من صدقها) ، واذا كان لا بد ان يكون التحقق في اطار ملاحظة الحوادث المحسوسة تجردت القضايا الاخلاقية من كل معنى - ويصبح من العبث عندئذ ان نستعين بصفة غامضة تستعصى على الملاحظة على تحقيق هذا الفرض . وهكذا اختفت الصفة غير الطبيعية التي نادى بها مور في هذا الجو الارتياحي ، واختفت معه كثير من الاعيان الميتافيزيقية (المزعومة) الاخرى . وهكذا تميزت القضايا الاخلاقية عن غيرها في وضوح وجلاء كما في اليوم ، اذ لم تعد - فيما زعموا - صادقة أو كاذبة لأنها لم تعبر عن وقائع

طبيعية للسبب الذي ساقه « مور » ولا عن وقائع ميتافيزيقية للسبب ذاته .
ولانعدام وجود الوقائع الميتافيزيقية في حد ذاتها . ولذلك قيل ان القضايا
الاخلاقية تعبر عن انفعال Emotion . فدلالتها انفعالية وليست وصفية أو
واقعية .

وما هو جدير بالملاحظة ان النظرية الانفعالية في الاخلاق لم تبتدع
حصيلة البحث الدقيق في القضايا الاخلاقية ، بل نشأت على الاكثر كتناج
عرضي لنظرية المعنى طبقت في حقول وميادين أخرى . وقد تم دحض
النظرية الانفعالية بطريقتين : أولا بالعودة الى الحس العام السليم حين ساد
الشعور بان العبارات الاخلاقية لا بد أن تُعتبر على نحو ما معقولة ويمكن
الدفاع عنها بالحجج والاستشهاد بالوقائع . وثانيا : لما بطلت هذه النظرية
نتيجة تطورين آخرين في الفلسفة : الاول هو الفكرة القائلة بأنه ينبغي ان
لا يحل المعنى في حدود طريقة التحقق بل في حدود الاستعمال التطبيقي
Use والثاني « زوال العقل » .

اما نحن فنرى ان فكرة كون معنى الكلمة - اية كلمة - لا يتجاوز
استعمالها - وهي فكرة اقترنت في ميادين أخرى باسم فنكشتاين - قد نشأت
في مجال الاخلاق بصورة مستقلة نتيجة تطوير النظرية الانفعالية وتهذيبها .
فلم تعد العبارات الاخلاقية تعبر عن انفعال بل تثير انفعالا وبصورة أهم
تعمل على اقناع الناس واستئثارهم .

تلك هي النظرة التي عرضها ستيفنس^(١) Stevenson عرضا مستفيضا في كتاب الاخلاق واللغة Ethics and Language ومهما يكن الامر ، فقد حصل انقلاب في نظرتنا نحو المفاهيم السيكلوجية عقيب هذا التطور واقترن بالتغير الذي حدث في مفهوم المعنى عندنا . فاصبح « العقل » مجموعة من الافعال والانماط السيكلوجية المشاهدة بعد ان كان جملة من الاعيان الداخلية كالملكات والمشاعر التي يمكن استبطانها . وغدا بوسعنا ان نعرف كيف تُستخدم الكلمات الدالة على مفاهيم عقلية على اساس الملاحظة المكشوفة وقد كان لهذه النظرة الجديدة التي عمل البرفسور رايل^(٢) The Concept of العقل على انتشارها في كتابه مفهوم العقل Mind اثر بعيد في الفلسفة الاخلاقية . فاذا عُذَّت العبارة الاخلاقية تعبيرا عن اتجاه يفهم في حدود مشاعر المتكلم - وربما في حدود رغبته في التأثير في مشاعر المخاطب - اصبحت الآن تعبيرا عن اتجاه ينبغي تحليله في حدود سلوك المتكلم وعزمه على التأثير في سلوك المخاطب . فكانت العبارات الاخلاقية تُعتبر اولا نداءات وعلامات تعجب ومن ثم استنالات ، اما الآن

(١) ستيفنس C. L. Stevenson (١٩٠٨ -) فيلسوف امريكي واجتهد الفلسفة الاخلاقية بجامعة ميشغان . واشهر كُتبه هي الاخلاق واللغة وفيه يقدم شرحا وافيا للنظرية الانفعالية للاخلاق .

(المترجم)

(٢) رايل : G. Ryle (١٩٠٠ -) استاذ الفلسفة في جامعة اوكسفورد واحد رواد الفلسفة اللغوية . وتنحصر مهمة الفلسفة في رايه في حل المشاكل الناجمة عن قصور فهمنا لوسائل المعرفة عندنا .

فقد أصبحت اوامر Imperatives او ايعازات (وصفات) Prescriptions
او قواعد Rules

ومما هو جدير بالملاحظة هنا ان اتخاذ هذا التحليل هياً للفيلسوف الفرصة لتفسير ماهية الاخلاق بطريقة منطقية بحتة دون الاستعاضة باعيان ميتافيزيقية او سيكولوجية وعلى نحو ساعده على حل المعضلة القديمة المتعلقة بموضوعية او ذاتية التعبيرات الاخلاقية حلاً كاملاً . ذلك اذا لم يكن التعبير الاخلاقي عبارة حقيقية بل قاعدة ، فلا يمكن أن يكون ذاتياً أو موضوعياً ، ولا صادقا أو كاذبا . وهكذا أمكن الردّ على اعتراضين على نظرية مور في الاخلاق : اذ تبين ان الاحكام الاخلاقية ليست على اي نحو من الانحاء واقعية ، بل عملية وجوابا عن السؤال : « ماذا ينبغي ان افعله ؟ » فاذا كان مور قد رأى ان التعبيرات الاخلاقية ليست نضائح اخلاقية بل تدل على ادراك اخلاقي عميق وهي بمعنى ما واقعية ، فإن التحليل الجديد قد صحّح

هاتين النقطتين . وبقيت هناك المسألة المتعلقة بمعقولة Rationality الاحكام الاخلاقية والتي عجزت نظرية مور عن شرحها شرحاً مرضياً ، وقد تم التغلب على هذا العيب بادخال المزيد من التحسين على أسلوب التحليل . فاذا كان التمييز بين المعنى « الوصفي » Descriptive (أي المعنى بالاشارة الى الواقعة) والمعنى « التقييمي » Evaluative مقصوراً على أنواع القضايا ، فقد تسرب الآن الى داخل الكلمات الاخلاقية الفردية ذاتها ، فتوجب تقسيم معنى الكلمة « خير » - مثلاً - الى جزء تقييمي وجزء

وصفي . فاما الجزء الوصفي فانه يشير الى الوقائع التي تجعل المتكلم يقول ان شيئا ما قيم ، واما الجزء التقييمي فيتألف من الابعاز الى المخاطب بالقول : « اختر هذا الشيء » . وعلى هذه الصورة هيا لنا هذا التحليل القدرة على سرد الوقائع في سبيل مناقشة الاحكام الاخلاقية والدفاع عنها دون أن تصبح هي عبارات واقعية .

هذه هي النظرة الحالية في الاخلاق ، توصلنا اليها بعد القيام بتصحيح عدد من النظريات المتعاقبة ، وما تزال المساعي مبذولة في تطويرها . وقد شرح ار. ام. هير^(١) R.M.Hare هذه النظرة اوضح شرح في مؤلفه لغة الاخلاق The Language of Morals ويمكن ان نجملها كما يلي : تنعكس اخلاقية الرجل في سلوكه ، وليست العبارة الاخلاقية - اية عبارة - إلا ايعازا او قاعدة يهتدى بها لاختيار شيء ، اما معنى الكلمة الاخلاقية الوصفي التي تحتويه فيحدد بواسطة الاشارة الى معايير واقعية لاستخدامها . بكلمة اخرى ، اننا في العبارة الاخلاقية نصدر ما يشبه الأمر بتنفيذ شيء معين ، ونبدي استعدادا لسرد الوقائع التي توجب القيام به . يضاف الى هذا اننا

(١) ار. ام. هير R. M. Hare (١٩١٩ . . .) فيلسوف انكليزي واستاذ الفلسفة الاخلاقية بجامعة اكسفورد أهم كتبه « لغة الاخلاق » (١٩٥٢) وفيه يرى ان المهمة الأولى للفلسفة الاخلاقية هي توضيح طبيعة الاحكام والحدود الاخلاقية ، وان العبارات الاخلاقية اقرب الى الاوامر منها الى الجمل الوصفية .

(المترجم)

نبدى استعدادنا أيضا - اذا كنا مخلصين في هذه العبارة الاخلاقية - للقيام به بانفسنا في الظروف الملائمة . فلا نغالي اذا قلنا ان كتاب هير يمثل النظرة الحالية في الاخلاق وان كان قد استهدف لحملات كثيرة . لكن هذه الحملات - فيما نرى - تدور حول تفصيلات تحليل هير للاخلاق دون ان تمس افتراضاته الاساسية ، وسنرجى البحث في هذه الافتراضات الى وقت قريب آخر .

وبعد فيمكننا ان نقول : ان هذا القدر الذي سقناه من تاريخ الفلسفة يُعد بمثابة استبعاد (طرد او اقضاء) للميتافيزيقا من ميدان الاخلاق ، واصبحت الاخلاق نقية من كل شوائب الميتافيزيقا، وبذلك لم تعد تفسرها مفاهيم ميتافيزيقية كالارادة العاقلة ولا مفاهيم سيكولوجية كالمشاعر الاخلاقية . وفوق هذا كفّ الفلاسفة عن اعتبارها مرتبطة باي تركيب طبيعي او ميتافيزيقي حقيقي ، واعرضوا عن فكرة الدفاع عنها بالحجج الفلسفية ، واصبحت الاخلاق لا تستند الى دعامة صورية (ترانسندالية) بل غدت ارشادا أو اختيارا معززا بالوقائع . ونتساءل الآن : ما الذي حدث ها هنا تماما ، وما هي المسؤوليات التي ألقيت على كاهلنا دون علم منا ؟ للجواب عن هذا السؤال نقول :

انبثقت هذه النظرة من مجموعة متلاحمة من الحجج يعضد بعضها البعض ، وللكشف عن طبيعة هذه الحجج ينبغي - فيما نرى - ان نميز بين انواع ثلاثة من الحجج التي تقوم عليها هذه النظرة ، فأولا ، هناك الحجج الانتقادية العامة التي تنفي وجود الابعان الميتافيزيقية . وثانيا هناك الحجج

الانتقادية الخاصة التي تفيد انه حتى اذ افترضنا وجود هذه الاعيان الميتافيزيقية ، فلا يمكن ان نتخذها اساسا نقيم عليه تحليل الاخلاق لانه يستحيل ان نستخلص ما ينبغي Ought مما هو كائن Is اي القيم من الوقائع . وثالثا هناك الحجج التي تستعين بالخبرة الاخلاقية ، فتأتي دليلا على صحة التفاصيل العديدة من هذا التحليل كمفهوم الاهتمام لاختيار سيء واقامة الحجج والرجوع الى الوقائع والحكم على الرجل من سلوكه وما الى ذلك .

وسنوجز القول في الحجة الاولى التي تدعى عكس الحجة الميتافيزيقية The Anti-metaphysical Argument فإن نقد الميتافيزيقا الذي كان دائما جزءا من التراث الفلسفي الانكليزي والذي قام كانت بتنسيقه ، يؤلف جانبا بارزا في الفلسفة الحديثة وله في الاخلاق نتائج لا يمكن انكارها . لكن لا يعني هذا ان المفاهيم الاخلاقية العظمى مثل « الارادة العاقلة » خالية من الدلالة او انها عديمة الفائدة ، بل انه لا يمكن التنب منها بواسطة الانواع المألوفة من الحجج الفلسفية ولنا عود الى هذه النقطة فيما بعد . اما الآن فلنتنقل الى الحجة الثانية .

تُعرف الحجة الثانية باسم « عكس الحجة الطبيعية » The anti-naturalistic Argument وتفيد اننا لا يمكن ان نستخلص القيم من الوقائع ، وهي تؤلف اهم حجة في الفلسفة اخلاقية الحديثة ، بل تستغرقها كلها . وما ينبغي ان يلاحظ ان هذه الحجة - على النحو الذي ظهرت فيه مؤخرا - تنطوي على بعض التعقيد . اذ تُعرض احيانا وكأنها فضح لمغالطة منطقية . وهذا هو المعنى الذي قصده مور لما اطلق على الحجة في استنتاج

« ما ينبغي ان يكون » « مما هو كائن » اسم المغالطة الطبيعية Naturalistic Fallacy . اما هير فقد استخدم الفاظا منطقية للتعبير عن تلك الحجة التي تؤلف الاساس الذي قامت عليه نظريته . ومفاد هذه الحجة انه لكي نتوصل الى نتيجة تنطوي على أمر ، نحتاج على الاقل الى مقدمة واحدة تنطوي على أمر . ومما يشجعنا ايضا على النظر الى هذه الحجة على هذا النحو الشكلي الاصلي المثير الذي وضعها فيه هيوم - وكذلك الشكل الذي وضعها فيه مور والذي استحوذ على اذهاننا وكان رداً على مغالطة صريحة ارتكبتها جون ستوارت مل^(١) John Stuart Mill الا وهي : ان ما ترغب فيه What is desired هو نفسه في الواقع ما ينبغي ان ترغب فيه . what ought to be desired فاذا كانت عكس الحجة الطبيعية تسعى الى الاشارة الى انه لا يمكن استخلاص عبارة تقييمية مباشرة وبدون الاستعانة بشيء آخر من عبارة واقعية اعتيادية ، أمكن عندئذ ان نقول : انها كشف لمغالطة منطقية . لكن الصعوبة ها هنا تكمن في ان الحجج الساذجة - كحجة مل هذه - نادرة جداً في الفلسفة الاخلاقية ، وفي مؤلفات فلاسفة الاخلاق ، وانما تبدو في مؤلفات علماء النفس والاجتماع . وذلك لأن كبار فلاسفة الاخلاق عملوا في الماضي على عرض صورة ميثافيزيقية تامة (للكون) تشكل الاخلاق جزءاً منها . والملاحظ انه لا يمكن استخدام الحجة الاولى -

(١) جي. اس. مل J. S. Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣) فيلسوف ومنطقي انكليزي نادى بالاختيارية . واهم مؤلفاته : نظام المنطق (١٨٤٣) والنفعية (١٨٦٤) ، الحرية (١٨٥٩) وهو الذي وضع قوانين الاستقراء المشهورة والمعروفة باسمه .

(المترجم)

عكس الحجة الميتافيزيقية - في تبديد هذه الصورة - اي كشف فشل الفيلسوف موضع البحث في اقامة الحجج على صدق تركيب الكون الذي يصفه . غير اننا نشك في امكان استخدام الحجة الثانية - عكس الحجة الطبيعية - في نقد مكانة الاخلاق في الكون وان كان مور قد اعتقد ذلك ، وربما احتج بامكان الاكتفاء بعكس الحجة الميتافيزيقية في القطع في هذه المسألة لأنه اذا عجزت عن اثبات التراكيب الميتافيزيقية المتعالية (الترانسندالية) بواسطة الحجج الفلسفية ، فلا يمكن ان تُتحد مثل هذه التراكيب اسبابا للاخلاق . لكن المسألة ليست من البساطة الى هذا الحد ، اذ ان فلاسفة الاخلاق اليوم يعملون - فيما يزعمون - على تحليل ماهية الاخلاق واستجلاء منطق اللغة الاخلاقية . ولا تستطيع عكس الحجة الميتافيزيقية ولا عكس الحجة الطبيعية في صورتها البحث ان تحدد المكان الذي يشغله مفهوم المتعالي في تركيب الاخلاق .

وهذه الصورة الساذجة المحدودة من عكس الحجة الطبيعية يصح ان يطلق عليها اسم « الحجة المنطقية » ، The Logical Argument فإن دلت هذه الحجج على شيء ، فانما تدل على صعوبة تصورنا للاخلاق على أساس متعالٍ يستمد وجوده من الحجج الفلسفية وكذلك على أساس واقعي . ومع هذا لا يعني ان مفهوم الاعتقاد بالمتعالي ليس له أثر في التفسير الفلسفي للاخلاق .

ونتساءل الآن : لماذا قيل ان اعتبارات فلسفية تملئ علينا التفسير

السلوكي المجرد الذي يقدمه الفيلسوف الحديث عن الاخلاق ؟ السبب فيما نرى هو ان عكس الحجة الميتافيزيقية والحجة المنطقية اقترننا في الازهان بقول ماثور فيه ايهام وتعميم شديداً مفاده : انه لا يمكن ان ننسب الاخلاقية الى مادة العالم . وقد احتل هذا القول - الذي يمثل روح الاخلاق الحديثة - مكانة منطقية رفيعة . ونساءل ثانية : لماذا لا ننسب الاخلاق الى مادة العالم ؟ لا شك ان كثيراً من الناس من غير الفلاسفة ممن لا يجوز اتهامهم بالمغالطة - لخلو ذهنهم من الاستعانة بالحجج المنطقية - يرون ان الاخلاق جزء لا يتجزأ من الحقيقة سواء اكان ميدان الحقيقة دينياً ام اجتماعياً ام تاريخياً .

على ان هناك - فيما نرى - سبباً اخلاقياً آخر يفسر لماذا لا ننسب الاخلاق الى مادة العالم . وبيان ذلك انه اذا نسبنا الاخلاق الى العالم ، تعرضت اخلاقنا الى خطر التحول الى عقيدة راسخة واصبحتنا نضيق ذرعاً بقيم الآخرين وكففتنا عن التأمل في قيمنا الخاصة بسبب المغالاة في التسليم بها . وبكلمة موجزة اذا اعتبرنا الاخلاق جزءاً من طريقة عامة في فهم الكون اي جزءاً من اطار اوسع من المفاهيم ، فقد نكف عن التأمل فيها وتحمل المسؤولية تجاهها ، او ربما ادى الأمر بنا الى اعتبارها امراً واقعاً ليس لنا عنه محيص . فاذا قلنا ان النظام الاخلاقي ضرب من الواقع وليس طائفة من القيم التي تعتمد في وجودها على اختيار الناس (لهذا الشيء او ذاك) ، انحط سلوكنا الاخلاقي . ومن الملاحظ في هذا المجال ان هذا الخوف من الانحطاط الاخلاقي الناجم عن الافتقار الى التأمل (في المسائل الاخلاقية)

يساور عددا كبيرا من فلاسفة الاخلاق المحدثين ، لا سيما Hare الذي سبق ان اشرنا الى كتابه ، ونجد ذلك ايضا عند كثير من الفلاسفة الوجوديين ، كما تجده في كتاب مل العظيم « مقالة في الحرية » Essay On Liberty.

من هذا نلاحظ ان هذا النوع من الاعتراض الذي يصور الاخلاق جزءا من فهم العالم فهما منسقا يختلف عن الاعتراضات الاخرى . فهو ليس اعتراضا منطقيًا ولا فلسفيًا ، بل اعتراض اخلاقي مؤاده اننا اذا نظرنا الى الاخلاق على هذا النحو لزمنا نتائج سيئة . واذا صح هذا ، فإنه لا يعني استحالة كون الاخلاق جزءا من نظام عام من المعتقدات التي تتصل بالعالم والاعيان المتعالية . ولا يدل على ان كل ما ينطوي على مثل هذه المعتقدات ليس من الاخلاق في شيء ، بل على ان التمسك بهذه المعتقدات يشكل خطرا عظيما من الناحية الاخلاقية والاجتماعية .

ونحن اذ نذكر ذلك انما نشير الى ان الفلاسفة المحدثين نزعوا الى اعتبار تفسيرهم للاخلاق تفسيرًا سلوكيًا غير قائم على المفاهيم التفسير الوحيد الممكن لها ، لأنهم ربطوا عكس الحجة الميتافيزيقية وعكس الحجة الطبيعية بحجة اخلاقية تختلف عنهما وتنادي بمذهب التحرر Liberalism . أما السبب الذي دفعهم الى هذا كله فهو - فيما نعتقد - ان دراسة الاخلاق الفعلية في مجتمعنا قد ساعد على تعزيز النظرة السلوكية في الاخلاق . وقد بحثنا حتى الآن في حجتين من الحجج الثلاث التي تأخذ بيد النظرة الراهنة في الاخلاق وهما : عكس الحجة الميتافيزيقية وعكس الحجة الطبيعية التي وجب تقسيمها الى (أ) حجة منطقية ضيقة و (ب) حجة منطقية عامة .

ونتقل بعد هذا الى دراسة الحجة الثالثة او مجموعة الحجج المستوحاة من مفهومنا العام عن ماهية الاخلاق .

لا شك ان المفهوم العام للاخلاق السائدة في مجتمع حرّ (كالمجتمع الانكليزي) يقرّ قسطا كبيرا من النظرة السلوكية في الاخلاق مباشرة . فنحن في مثل هذا المجتمع نؤمن بالتوصل الى الحكم على مبادئ الشخص على اساس سلوكه وبالتأمل في قيمنا واحترام قيم الآخرين وفي بناء كياناتنا الاخلاقية عن طريق الوقائع ودحض النتائج الحدسية باللجوء الى الحجج وما الى ذلك . فاخلاقية الرجل الحرّ على العموم بسيطة من الناحية الذهنية . وبهذا نتناول العالم مزدوين ببعض القيم العامة التي نتمسك بها دون تردد وفي معزل عن الميتافيزيقيا أو اللاهوت الايقاني Dogmatic Theology كاحترام الحرية والحق وغيرهما . ونستطيع في هذا المجال ان ندرس الوقائع ونختبر الاشياء في ضوء الوقائع والقيم عندنا . وبناءً على هذا نعتبر الخلافات الناشئة بين افراد مجتمع واحد من مجتمعاتنا متصلة بتطبيق المبادئ . اما الخلافات بين مجتمع وآخر فتثيرها المبادئ ذاتها . وبطسعة الحال لا تُعدّ اخلاقية بعض الناس او الجماعات عندنا بسيطة من حيث المفهوم ، بل ميتافيزيقية وبيقينية (مثل بعض المسيحيين وكل الشيوعيين) . وبما ان هؤلاء يؤلفون اقلية (في المجتمع الحرّ) لذا تعتبر الصورة المنطقية التي يعرضها الفيلسوف الاخلاقي الحديث ممثلة على العموم للمثل الاخلاقية السائدة في المجتمع الانكليزي تمثيلا وافيا .

لقد تناولنا ابسط الكلمات الاخلاقية (« خير » و « حق ») بالتمثيل وقسمنا معناها الى جزء وصفي وجزء تقييدي . فأما الاول فيمثل المعايير

الواقعية واما الآخر فيمثل التوضّيات . فاذا زالت الخلافات الواقعية (الاختبارية) المتعلقة بتطبيق المبادئ وتصنيف الحالات ، أصبحت الخلافات الاخلاقية الاساسية متوقفة على الاختيار Choice وتقديم التوصيات في عالم مشترك من الوقائع . من هذا نجد الفيلسوف الاخلاقي الحديث قد حذا حذو الميتافيزيقيين في الماضي دائما ، فجاءنا بنموذج لاخلاقيته الخاصة وليس نموذجاً للاخلاقية العامة .

وبعد ان بلغ بنا المطاف هذا الحد نريد ان نواصل البحث لنحدد الاتجاه الذي ينبغي على الفيلسوف اتخاذه في تحيّرهِ للاطر الميتافيزيقية او الفكرية التي توضع فيها الاخلاقية . ويهمننا في هذا السبيل ان نميز بين ثلاثة اسئلة هي :
اولا ، هل يجب ان تُعدّ المثل الاخلاقية قائمة في الفرد ام انها جزء من اطار عام للحقيقة التي تشمل الفرد ؟ وثانيا ، ما هي الحجج التي نستطيع بها ان نقيم الدليل على وجود مثل هذا الاطار العام ؟ وثالثا ، ما هي الطريقة التي يترتب على الفيلسوف الاخلاقي ان يتبعها في هذا السبيل ؟ سنبحث هذه الاسئلة بالترتيب .

اولا ، هل ينبغي ان تركز المثل الاخلاقية على الفرد بصورة اساسية ؟ نلاحظ ان تراثنا الفكري ينزع الى التسليم بأن المثل الاخلاقية ينبغي ان تنغرس في الذات . وفي هذا السبيل نستطيع ان نستشهد بكانت الذي يقول ان الارادة الاخلاقية مستقلة بذاتها ولا يمكن اقامتها الا في الذات . لكن هذه النظرة في الاخلاق ليست الا واحدة من جملة نظرات متعددة ، وهي على العموم تمثل نظرة البروتستانتية وعلى الخصوص نظرة المذهب الحرّ . ولا يُعدّ كانت مصدر هذه النظرة المتحررة وحسب بل مصدر نظرية

اخلاقية القانون الطبيعي Natural Law Morality التي تعتبر في الحق مضادة لفكرة الارادة الاخلاقية المستقلة وسنبحث القول فيها بعد قليل .

واذا انعمنا النظر في المسلمات الاخلاقية وجدناها تنزع الى الموافقة على ان الارادة الاخلاقية منفصلة ومستقلة بذاتها ، ومما هو جدير بالملاحظة ان الفلاسفة (الانكليز) - باستثناء المثاليين منهم - لم يعرضوا نظرية ميتافيزيقية مفصلة في الاخلاق . ولا عجب في ذلك لان الاخلاق مرتبطة دائما بنظرية المعرفة أوثق ارتباط . فاذا اردنا ان نفهم الاخلاق توجب علينا ان نبحث في نظرية المعرفة . وابرز مثال يمكن ان نسوقه في هذا المقام هو هيوم Hume فقد ورثنا عن هيوم اكثر من اي فيلسوف آخر نزعة فلسفية - لما تزل سائدة عندنا - تعدّ العالم مؤلفا من بسائط يرتبط بعضها ببعض ، ارتباطا عرضيا ، وبمعنى آخر يعتبر هيوم العالم مجموعة كلية من الوقائع البسيطة التي لا يقوم بين اجزائها ارتباط ضروري . واذا تصورنا العالم يضم اشياء ضرورية تربط عناصره البسيطة علاقات حقيقية ، فذلك حصيلة العادة Habit والعرف Custom . ولا نستطيع الا عند التأمل العميق ان ندرك ان العالم يتكون من اشياء مفككة لا يربطها رابط . والعادة - في رأي هيوم - هي السبيل الى معرفة العالم المادي الموضوعي والعالم الاخلاقي على حد سواء . فالانجماوات الاخلاقية مألوفات او عادات عاطفية رسخت في المجتمع . وهذا كل ما في الأمر . ولما كان هيوم من المحافظين على الاخلاق وعلى السياسة . لم يجد مانعا من الاستمرار في اعتبار الاخلاق مسألة الف وعادة . ولما كان هيوم من الناحية الأخرى تجريبيا كما عهدناه ، فانه جاء بفكرة العادة ليخفي وراءها عالم الوقائع غير المترابطة . والتأمل كفيل بأن

يكشف لنا ذلك من الناحية الاخلاقية والعلمية على حد سواء .

وهكذا يبدأ تاريخ الاخلاق في انكلترا . فنلاحظ الانكليز يتأرجحون بين العادة والتأمل (التفكير) . فبينما يؤكد المحافظون على العادة ، يؤكد التقدميون على التفكير . وبين هؤلاء واولئك امور كثيرة مشتركة : فليس التأمل ها هنا نظرا ميتافيزيقيا ، بل هو رجوع الى الوقائع . فلم يقم برك^(١) Burke - وهو من كبار المدافعين عن التقاليد (النقل) باعتبارها قاعدة للاخلاق - حججه على اساس من الميتافيزيقا او النظام الموضوع ، بل رفض كل نظام ميتافيزيقي للاخلاق . وكان التقاليد والعرف يعتبران وقائع او حقائق راهنة ينبغي احترامهما بما هما كذلك . وكما ان انصار التقليد (النقل) لم يكونوا ميتافيزيقيين ، لم يكن دعاة التقدم كذلك . وفي مقابل هذا كانت المثل التي بعثت الحيوية في المجتمع الانكليزي نفعية . فاذا اراد النفعيون استخدام التفكير (التأمل) للقضاء على العادة والعرف لم يستعينوا بانظمة ميتافيزيقية بل بقيم بسيطة وبالتالي بالوقائع . ويتمثل هذا التأرجح بين العادة والتأمل في الفلسفة الاخلاقية المعاصرة في التباين بين البرفسور رايل Ryle والبرفسور اوكشوت^(٢) Oakeshott - وكل منهما

(١) برك E. Burke (١٧٢٩ - ١٧٩٧) اديب وسياسي بريطاني وعضو البرلمان الانكليزي ، وقد اشتهر بخطبه ومناقشاته في البرلمان وساهم في كل الحركات الكبرى في عصره . اهتم آثاره كتابه « الجلال والجمال » The Sublime and Beautiful.

(المترجم)

(٢) اوكشوت Michael Joseph Oakeshott استاذ السياسة في جامعة لندن

يعرف ان الاخلاق انما هي مسألة عادة وينبغي ان تكون كذلك - من ناحية وبين ولدن^(١) Weldon وهير Hare وكل منهما يفرض ان الاخلاق تقوم على دراسة الوقائع ومن ثم على القيام باختيار على اساس من التفكير او التأمل - من ناحية اخرى .

من هذا نلاحظ ان الجواب الذي قدمناه عن السؤال هل الاخلاقية ترتكز على الفرد قد تأثر بعضا بنظرتنا الاخلاقية الخاصة من ناحية وبعضا بالمذهب الاختباري الفلسفي الذي ندين به - والذي يجعلنا نقول انه لا بد وان تكون ماهية الاخلاق على هذا النحو - من ناحية اخرى - ولنا ان نحترز فنقول : لا يكبح جماح الفرد الا عاداته وتقاليده ، وهذه كلها مجرد وقائع اسوة بالوقائع الاخرى ويمكن دراستها بكثير من التفكير والتأمل . على ان هذه ليست الا طريقة واحدة - وهي على العموم طريقة بروتستانية ومتحررة واختبارية - لتفسير الاخلاق . فان انصار اخلاق القانون الطبيعي -

(مدرسة لندن للاقتصاد) . وله مؤلفات كثيرة أهمها الخبرة وحالاتها Experience and its Modes ، المبادئ الاجتماعية والسياسة Social and Political Doctrines والمذهب العقلي والسياسة في اوروبا في الوقت الحاضر . Rationalism and Politics of Contemporary Europe

(المترجم)

(١) ولدن T. D. Weldon (١٨٩٦ - . . .) استاذ الفلسفة في جامعة اكسفورد وله مؤلفات عديدة نذكر منها الدول والخلق States and Morals ، معجم السياسة Vocabulary of Politics

(المترجم)

كمريدي القديس توما الاكوييني وهيكل وماركس - ينظرون الى هذه المسألة من زاوية مختلفة تماما . فيرى هؤلاء الفلاسفة ان الفرد موجود ضمن اطار يتعالى عليه ، وليس له اهمية بل ولا حقيقة الا بقدر وقوعه ضمن هذا الاطار .

ولنا ان نشير الى بعض الاختلافات بين نظرة القانون الطبيعي Natural Law View والنظرة المتحررة Liberal View . فالنظرة المتحررة تحكم باستطاعة الفرد ان يدرك موقفه ادراكا تاما بواسطة التفكير وله الحرية المطلقة في اختيار ما يشاء وهو مسؤول عن هذا الاختيار الذي تنعكس فيه اخلاقيته ، فيكشف عن الاشياء التي يعتبرها قيّمة . وفي هذا المجال تُعد الفلسفة الوجودية شارحة منظمة للاخلاقية المتحررة . اما نظرة القانون الطبيعي في الاخلاق فتري ان الفرد يقف وجها لوجه تجاه حقيقة يستعصي عليه ادراكها . ولكي نكتشف الخير الاخلاقي ينبغي ان نكتشف تلك الحقيقة ، ولكي يصير (الفرد) خيرا ينبغي أن يندمج فيها . يضاف الى هذا ان الفرد خاضع لقوانين ليست في وسعه فهمها الأجزئيا ، وهو لا يعرف ماهية ذاته معرفة تامة ، وان حريته لا تقوم على اساس من الاختيار الصريح وبمقتضى موقف واضح المعالم بين القسّمات ، بل على اساس من معرفته المتزايدة بوجوده الحقيقي الخاص ومن سلوكه التابع بطبيعة الحال من هذه المعرفة .

ومما نود التأكيد عليه هنا ان الاختلاف الذي اشرنا اليه ليس اختلافا بين فلسفتين وحسب ، بل انه اختلاف بين ضربين من اوجه النظر الاخلاقية . ولا بدّ ان نضيف الى ذلك شيئا جديدا فنقول : ان الناس في مجتمعاتنا

(الانكليزي) لا يؤمنون جميعا بالنظرة المتحررة في صورتها الخالصة . بل ان رجل الشارع ليعتقد في الغالب بان الاخلاق موضوعية لا ميتافيزيقية : اي انه يؤمن بأن القيم الاخلاقية حقيقة ثابتة - وهذا يفسر سخطه على انصار النظرة الانفعالية في الاخلاق وعلى الوجوديين - لكنه لا يعرف كيف اصبحت كذلك ، فهو من هذه الناحية يختلف بطبيعة الحال عن الماركسي مثلا .

وينبغي ان نلتفت الى ان الصورة المنطقية التي تقدمها الفلسفة الحديثة عن الاخلاقية تغفل عن أهمية الاختلاف الذي تحدثنا عنه . فقد اضطررنا الى ان نصف الاخلاق وكأن الكائنات الاخلاقية كلها تعيش في عالم واحد من الوقائع ، وليس في وسعها ان تميز بين المبادئ الاخلاقية المختلفة اللهم الا بواسطة الاختلافات الخاصة بالافعال والاختيارات ونحن نرى ان قيام اختلافات كلية تتعلق بالرؤيا وبزاوية النظر الاخلاقيتين شيء ممكن . ويديهي انه مهما كان البناء الذي تقام عليه الاخلاق فخما ، فإن الفاعل الاخلاقي Moral Agent - من وجهة النظر الاخلاقية المتحررة - مسؤول عن ابراز أهمية هذه الاختلافات الكلية . فيصب انصار المذهب المتحرر في الاخلاق اهتمامهم على النقطة التي تنقطع عندها الصلة بين الفاعل الاخلاقي والاطار الذي يختاره - تلك النقطة التي يعمل الفيلسوف الحديث على وضعها في شكل قانون . اما الفرد الذي يلتزم بمحتوى القانون الطبيعي ، فإنه - سواء كان مسيحيا أو ماركسيا - يرى ان المسألة تختلف عن ذلك تماما . فلا نجد ها هنا بديهية انقطاع الصلة (بين الفاعل الاخلاقي والاطار الفلسفي) . وليس الاختيار الذي يقوم به الفرد على هذا القدر من

الاهمية ، بل ويتجه الاهتمام الى تقديس الاطار اكثر منه الى تفصيلات السلوك . فالملاحظ هنا انه اذا اكتفى الفلاسفة المتحررون بالتأكيد على ان الفاعل الاخلاقي حرٌّ على الاطلاق ومسؤول عن ابراز قيمة الاطار وان « ما ينبغي » لا يمكن ان يستخلص « مما هو كائن » فان ذلك يفضي الى اختلاف جسيم جدا في وجهة النظر لم نتاوله بالتحليل .

نتقل بعد هذا الى المسألة الثانية وهي : ما هي الحجج التي تستطيع ان تقيم الدليل على وجود او عدم وجود اطار متعالٍ (مفارق) Transcendent غير اختباري تحتل فيه الاخلاق مكانتها ؟ سنبحت في هذه المسألة بايجاز . نلاحظ ان القسط الاكبر من النقد الذي صبته الفلسفة الحديثة على الميتافيزيقا التقليدية هو في محله فعلا . يضاف الى ذلك ان الفلسفة الحديثة آلت على نفسها ان تدحض اشكالا من الميتافيزيقا شبه العلمية التي ترى ان العقل البشري يدور ضمن اطرار اجتماعية وتاريخية وسيكولوجية - واعنى بذلك النظرات المتعددة المتكثرة التي انبثقت من دراسة ماركس وفرويد^(١) وFreud وسلوك الالات الحاسبة وما الى ذلك . ولا بد ان نذكر هنا ان الحجة المنطقية التي تتمثل في العبارة القائلة : لا يمكن ان نستخلص « ما ينبغي » « مما هو كائن » افضل الحجج في نقد مثل هذه النظرات ، وتصبح مهمة الفيلسوف تعريف او اعادة تعريف الحرية

(١) فرويد S. Freud (١٨٥٦ - ١٩٤٠) عالم نفسي نمساوي ومؤسس مدرسة التحليل النفسي . ردّ الظواهر السلوكية الى اللاشعور .

(المترجم)

البشرية في وجه القوى المتعددة التي تعرضها للخطر فيما تثبت الحجاج التي هي على الاغلب فلسفية اكثر مما هي اختبارية . ويمكن ان تضرب بالمحاضرة التي القاها برلين^(١) بعنوان الحتمية التاريخية Historical Inevitability مثلا لهذا النوع من النقد الدفاعي السلبي . وقد اقام برلين الحجة - التي تذكرنا بحملات كيركيكارد^(٢) Kierkegaard على هيكل - على استحالة وقوع الفرد ضمن اطار من القوانين الحتمية . وهكذا استطعنا ان نقدم للحرية هذا التعريف - الذي تعني به الفلسفة لما له من أهمية عظمى - عن طريق مثل هذا النقد السلبي . والآن ، مُرى هل يمكن تعريف الحرية كذلك باستخدام وسائل اكثر ايجابية ؟ ان هذا باب يؤدي بنا الى اخطر المسائل واعوصها .

(١) برلين I. Berlin (١٩١٩ - . . .) فيلسوف انكليزي ، واستاذ النظريات الاجتماعية والسياسية في جامعة اكسفورد . قد ألف كتابا عديدة اهمها كارل ماركس Karl Marx وحتمية التاريخ Inevitability of History ومفهومان للحرية Two Concepts of Liberty

(المترجم)

(٢) كيركيكارد Soren Kierkegaard (١٨١٣ - ١٨٥٥) فيلسوف دانماركي ومن رواد الوجودية ، اشتهر مؤلفاته اما . . . او (١٨٤٣) ومفهوم الخوف (١٨٤٤) والتمسك بالموت .

عارض فلسفة هيكل وقال ان الحقيقة ذاتية واخذ الفردية في مجال الاخلاق . وهو مبتدع مفهوم الوجود باعتباره « اتحاد المحدود واللا محدود والوقتي والازلي » .

(المترجم)

لا نعرف على وجه التأكيد الطريقة الفلسفية التي ينبغي استخدامها الآن في دراسة الاخلاق والسياسة - واذا كان بعض الفلاسفة قد زعموا بأنه ينبغي أن يصفوا الاخلاق وينتقدوها - أي انه يتوجب عليهم ان يحددوا معالم الاخلاق من الناحية الفلسفية الايجابية - كان ذلك امرا معقولا ومقبولا . لكن ما السبيل الى ذلك ؟ نعتقد ان استخدام الطريقة التحليلية لدراسة الاخلاق تنطوي على مزالق لا تؤمن عواقبها لما في هذه الطريقة من عناصر لما تصبح واضحة تماما . ولا بدّ من مراعاة الدقة في استعمال الكلمات ، لأنها مدعاة الى التضليل . فينبغي الا تملك علينا عقولنا . ومن ناحية اخرى يجب ان نأخذ كل هذا بقدر كاف من الجدية . لقد وقع الفلاسفة في ضلال الكلمات لما زعموا ان وضع كلمة « خير » ضمن علامة التنصيص كفيّل بأن يحدث انقلابا في الاخلاق ، واصبح تحليل هذا المفهوم محور الاخلاق الحديثة . وهذا يرجع الى التأثير الذي تركته النظريات الميتافيزيقية الاولى في الاخلاق من ناحية والى التركيز على الفعل Act والاختيار Choice بمعزل عن البحث النظري التأملي والوصفي في ماهية الاخلاق - من ناحية اخرى . وقد زعم بعض الفلاسفة ان الحجة الاخلاقية تلجأ دائما الى الوقائع وليس الى تحليل المفاهيم ولا تفسيرها - وتعتبر الحرية - بحسب النظرة الراهنة - حرية اختيار مكشوف وليس للاختلافات في المعتقدات دخل في ذلك . وتُعد اللغة الاخلاقية وثيقة الصلة بالاختيار - أي انها تتميز بكونها تَحَث على الفعل وتوصي به - ويتجلى هذا تحليا تاما في تحليل معنى كلمة « خير » . واصبحت العبارة « هذا خير » مرادفة للعبارة « اختر هذا » وينبغي ان نذكر ان حريتنا ليست مجرد حرية الاختيار والعمل على أوجه

متباينة ، بل حرية التفكير والاعتقاد بصور متغايرة ورؤية العالم في اشكال مختلفة ومشاهدة الصور المختلفة واستخدام كلمات مختلفة في وصفها . وقد تتعلق الاختلافات الاخلاقية بالمفاهيم كما تتصل بالاختيار . ولا بدّ للتغير الاخلاقي - اي تغير- أن يظهر في الفاظنا . فإن الاخلاق تتضمن كذلك كيف يجب ان نلاحظ العالم ونصفه - على ان صلة ذلك بسلوكنا قد تكون معقدة .

وحين زعمنا ان كلمة « خير » تتضمن مفهوما واحدا يؤلف محور الاخلاقية ، كنا مأخوذين برنين الكلمات دون معناها . ولم يكن تأثير الالفاظ فينا شديدا بالقدر الكافي حين اهملنا كلمات اخلاقية اخص مثل « حق » و« شجاع » و« حر » و« مخلص » وكلها افكارا على جانب عظيم من الهمية . ولم يعد مفهوم « الخيرية » Goodness خصباً ومفعماً بالظلال ، في حين اصبح مفهوم « الحق » Truth ينطوي على صعوبات ومتناقضات يؤدي حل الغازها الى الكشف عن بعض الصفات المميزة للعالم الحديث . وربما استطعنا ان نظهر اختلافات عميقة تتعلق بالرؤى الاخلاقية Moral Vision عن طريق البحث في المفاهيم المعقدة .

وبطبيعة الحال يقوم الفيلسوف بدراسة مؤلفات القدامى بتجرد وحيدة ويبين وجوه الشبه والاختلاف بينها وبين مؤلفات الفلاسفة المحدثين . وقد عمل البعض على استشفاف القواعد المنطقية الحديثة من كؤلفات كبار المتأفزيقيين ورأوا انهم لم يوفقوا في محاولة القيام بما حققناه نحن على ان اهم وظيفه تضطلع بها الفلسفة الاخلاقية (الحديثة) هي تحليل المناهيم الاخلاقية الحالية بواسطة اللغة الاخلاقية . ونلاحظ ان الفلسفة الحديثة قد نظرت الى هذه الوظيفة

من زاوية ضيقة جدا ، فلم تأخذ بنظر الاعتبار المفاهيم المتعددة الكثيرة التي تؤلف النظام الاخلاقي أي نظام اخلاقي . كما ان فلاسفة الاخلاق لم يعالجوا معالجة وافية مسألة كيف قد يؤدي الاعتقاد بالاشياء المفارقة (المتعالية) الى تحوير معاني العبارات اخلاقية . وقد نشأت هذه المسألة على الاكثر نتيجة نقد العبارات اللاهوتية .

ولكن الا يكون هذا التحليل - في صورته الموسعة - ضربا من الميتافيزيقا؟ في الجواب على هذا نقول : ليس الأمر كذلك قطعا ، اذ لا يتضمن افتراض اعيان مفارقة (متعالية) اقامت الحجج المنطقية الدليل على وجودها ، بل على العكس من ذلك يوجه النقد الى اشباه هذه الحجج كلها ويعتبر الاعتقاد بمثل هذه الاعيان مسألة ايمان وعقيدة . فالفلسفة الحديثة تعادي الميتافيزيقا عداً يمكن اجماله بانها ترى ان الميتافيزيقا قد لا تقوم على اساس عميق ، وهو ما اشار اليه فكتنشتاين ، فلم يعجب الفريق من الناس الذي يريد ان يرد الاخلاق الى قاعدة واحدة .

ومن الناحية الاخرى ربما احوج تحليل ووصف اخلاقنا واخلاق الآخرين الى اتخاذ نماذج وصور للناس على اختلاف طبائعهم وتصرفاتهم . وقد اختلف فلاسفة الاخلاق في الماضي في السبل التي اتبعوها بانفسهم ، فلم يتفقوا على قاعدة فيما بينهم . ولقد حاول بعضهم (مثل افلاطون) ان يكشفوا حقائق تعزّ على ادراك سواد الناس . وحاول آخرون (مثل كانت) ان يحلّلوا الاخلاق التي يتمسك بها سواد الناس من ذوي الضمائر الحية ، واضطروا الى وضع مفاهيم جديدة نتيجة ذلك . ولا بدّ ان نلاحظ ان هذا الوصف تحوّل من حيث لا ندرى الى دعوة الى الاخلاق . ويمكن ان نصرب

بجبرائيل مارسيل^(١) Gabriel Marcel مثلا للفيلسوف الاخلاقي المعاصر الذي وضع مفاهيم جديدة مقننة اثناء محاولته وصف الاخلاق . وقد حذا كل الفلاسفة الوجوديين في الحقيقة حذوه . كما فعل ذلك بعض اسلافنا من الفلاسفة المتأخرين من أمثال تيلور^(٢) A.E.Taylor وجوزيف^(٣) Joseph بل وحتى مور Moore الى حد ما . لكننا معشر فلاسفة الانكليز كنا نشعر بالخجل لمثل هذا الوصف الفضفاض ولوضع المفاهيم الجديدة لا لأن هدفنا لم يكن الدعوة الى التمسك بالاخلاق الفاضلة ، بل لان على الاخلاق - فيما نرى - ان تدرس التركيب المنطقي للغة الاخلاقية وان تتميز في ذلك بالحياد المنطقي . واذا صح ما قلناه ، فأن ذلك يؤدي الى وصف جهد الفلاسفة في هذا المجال بالدعوة الى تهذيب الاخلاق من حيث لا يدركون .

(١) مارسيل G. Marcel (١٨٨٩ .) فيلسوف فرنسي وامتاز الفلاسفة في جامعة السوربون ، وهو اشتهر من عرض للوجودية الكاثوليكية . اهو اقرب الوجوديين الى كيركيارد ويقول ان الفلسفة تتعارض مع العلم ذلك ان العلم يدرس عالم الاجسام ولا علاقة له بالخبرة الوجودية أي الحياة الروحية الداخلية للفرد . والخبرة الوجودية لا عقلية في جوهرها وتحتوي على الاسرار التي تكتنف حياة الفرد وتكون موضع عقيدة وإيمان (المترجم)

(٢) A.E. Taylor (١٨٦٩ - ١٩٤٥) فيلسوف انكليزي ذائع الصيت ، اخذ بالمبادئ الافلاطونية في فلسفته .

(المترجم)

(٣) H.W. B. Joseph احد المناطقة الانكليز المشهورين ، وكان له مساهمات كثيرة في المنطق التقليدي .

(المترجم)

لقد نزع الفلاسفة عادة الى البحث عن قواعد عامة . وظاهر ان الاسلوب اللغوي اذا اتخذ طابعا جديا يختلف بطبيعته عن الاساليب التي اعتدناها في البحث الفلسفي البحث . ومهما كان المنطق محددا ، فإنه يتصف بالعمومية ، واذا تركنا مجال المنطق وجدنا انفسنا في ميدان من المفاهيم المتغيرة المشوشة التي فيها الناس ورسموا منهجهم في الحياة بمقتضاها ، وهي في حد ذاتها هدف للتغير على مر السنين . وهذا يصدق بصورة خاصة على المفاهيم الاخلاقية . فيجب ان نكتفي بتحديد هذه المفاهيم بقدر لا بأس به من الوضوح . وينبغي - فيما نرى - ان لا نحاول توحيد الاخلاق في اطار واحد عن طريق تحديد هذه المفاهيم بهدي من ادراكنا للاخلاق عامة . وكل ما توضحه هذه الطريقة هو : ادراكنا الخاص للاخلاق على العموم - والذي فيه قد نفرض النظر عن اختلافات مهمة تتعلق بالمفاهيم - . واذا كف الفيلسوف من النقد وبدأ في البناء ، فهل يستطيع ان يقدم لنا حقيقة كلية مطلقة ؟ فاذا كان المقصود بالحقيقة الكلية شيئا يتصف بالكلية المنطقية ، كان الجواب بالسلب . ولا شك ان التحليل المنطقي الراهن للاحكام الاخلاقية ليس حقيقة كلية . وتبرز الصعوبة هنا - ببرزها عند الفلاسفة الماضيين في ان البحث ينصب على دراسة طبيعة الانسان في جانب بالغ الحساسية من كيانه ، وان الانسان مخلوق يتخذ لنفسه صورة ومن ثم يصبح شبيها بتلك الصورة - وعلى الفلسفة الاخلاقية يقع واجب وصف هذه العملية وتحليلها .

ينبغي علينا - فيما نعتقد - ان نجد طريقة مقبولة لتفسير اخلاقنا واخلاق غيرنا دون ان ننكر على انفسنا حرية رسم الصور (الاخلاقية) ووضع

الافكار التفسيرية التي استخدمها اسلافنا في الماضي لسبب بسيط هو اعتقادنا ان كل صورة من الاخلاق لا بد ان يكون نصفها وصفا والنصف الآخر ايضاً بها . ونحن باعتبارنا فلاسفة وباعتبارنا كذلك كائنات اخلاقية ينبغي ان نعتنى بالمشكلات التي عني بها اسلافنا بالذات وهي : ما الحرية ؟ هل يمكن ان ندلل على ان الناس احرار ؟ ما الصلة بين الاخلاق والوقائع الاجتماعية ؟ وما علاقة الاخلاق بعقيدتنا في الله وفي المعاد ؟ وما يتميز به الفلاسفة المحدثون عن اسلافهم كونهم ادري بالواجب الملحق على عاتقهم . وفي أدائنا لهذا الواجب نستطيع ان نتحلى بصبر اكبر ودقة اكثر في تحليل النظم الاخلاقية الاخرى . ونستطيع ان نكون اجراً واخصب خيالاً في الكشف عن نظامنا الاخلاقي من دون ان نفقد الفوائد التي نجنيها من ذلك الادراك الاخلاقي العظيم .

الفصل السابع

نقد الميتافيزيقيا

Criticisms of Metaphysics

لا نغالي اذا قلنا ان الميتافيزيقيا لم تجد في يوم من الايام من ينقدها . فقد كانت المؤلفات الميتافيزيقية - في خير حالاتها - نسيج وخدها كما كانت مشيرة على صورة تدعو الى الاخذ والردّ البالغى الشدة - فهي حيناً على جانب عظيم من الاهمية وحيناً خالية من كل فائدة . ولا بد ان نذكر ان اجلال الميتافيزيقا والخط من قيمتها - وان كانتا مسألة عقلية صرفة - ذات صلة بمزاج انصارها وخصومها . واذا كان الامر كذلك ، فليس من الغريب ان تكون هذه الخلافات بين أنصارها وخصومها عنيفة طورا وذات اطناب حيناً وغير قاطعة • ثالثا وعديمة الجدوى رابعا . ولذلك كان التعصب في الغالب وراء مناوئة الميتافيزيقا ونصرتها ، وافتقدت الميتافيزيقا من يفهمها بمعزل عن الهوى . على اننا لن نحاول في هذا الحديث ان نصف ولا نشرح المزاج الميتافيزيقي ولا المزاج المعادي للميتافيزيقا . ولن نحاول ان نسرّد قصة العداء للميتافيزيقا لما فيها من غموض واضطراب بالغين . بل سنقصر البحث على نوعين من النقد يوجهان ضد الميتافيزيقا ويتصفان في كونهما على درجة مقبولة من الوحدة والوضوح ، وهما : اولا نقد الوضعية المنطقية للميتافيزيقا ، وثانيا نقد كانت لها . وقد عمدنا الى عكس الترتيب التاريخي تبسيطا للموضوع .

من الاهمية ان نذكر ان العداء الذي تظهره الوضعية المنطقية تجاه الميتافيزيقا لم يكن نتيجة عرضية لاهتمامها بالابحاث الفلسفية الاخرى . بل دعت صراحة الى استبعاد الميتافيزيقا استبعادا تاما والى الابد . ولم تحاول الوضعية المنطقية ان تبين ان هذه النظرية او تلك مغلوطة او عديمة الفائدة ، بل رأت ان كل نظرية ميتافيزيقية بل وكل عبارة منها مستحيلة اصلا وخالية من كل دلالة ، وزعمت انها اقامت الحجج القاطعة على ذلك . فلم يكن ثمة داع - فيما رأت الوضعية المنطقية - الى دراسة النظريات الخاصة وتفنيدها بصورة مفصلة وكلاً على حدى . وانما كان هدفها ان تبين انه اذا عرضت لنا عبارة او طائفة من العبارات الميتافيزيقية كان علينا استبعادها في الحال من حيث انها لا تنطوي - كما قال هيوم - الا على « السفسة والوهم » .

ويمكن ان نوضح الحجة للتدليل على خلو العبارات الميتافيزيقية من المعنى في صور متباينة ، نذكر هنا ابسطها . فنقول : ان القضايا التي تتألف منها اية نظرية ميتافيزيقية لا بد ان تقع في نطاق العبارات العامة ، فتعتبر حقائق . ولذلك جاز لنا ان نسائل كيف يتم التحقق من صدق هذه العبارات المزعومة ؟ اذا قيل انها - حقائق ضرورية قبلية ثبت صدقها بالاستدلال رد الوضعي المنطقي زاعما بان صدقها يكمن في القواعد العامة لاستعمال اللغة ، ، وان ضرورتها تقوم في ان انكارها يعني مخالفة هذه القواعد وقيام تناقض بين الانسان ونفسه . فضرورة العبارات الميتافيزيقية تقوم في آخر الأمر على التكرار . واذا كان الامر كذلك ، لم تعبر العبارات الميتافيزيقية عن شيء وانقلب صدقها امرا شكليا بحثا . وفي حال انكار

شكلية العبارات الميتافيزيقية ، والدفع بأنها تعبر عن وقائع لا بدّ من اختبار صدقها وكذبها بالملاحظة للتأكد من انها تعبر عما هو الحال او ما ليس هو الحال . ولكن لما كان من المحال ان تكون الملاحظة غير اختبارية ، اقتضى ان تخرج الميتافيزيقا من تخصصر الفيلسوف ، وان تخضع للبحث التجريبي البحث .

ولا شك ان الوضعيين المنطقيين ادركوا ان الميتافيزيقي لن يسلم لهم واحدا من هذين الأمرين . فقد رفض ان يُخضع مبادئه الى الاختبارات التجريبية كما لو كانت نظرية في العلوم الطبيعية . وابتى التسليم بخلوها من التعبير عن الوقائع مطلقا وانكر في الختام ان تعتمد صحتها على مطابقتها لقواعد المنطق واللغة . على ان الوضعي المنطقي يعود ليؤكد ان المبادئ الميتافيزيقية ليست الا ضربا من الشعر ومجموعة من الرقي . فاذا زعم الميتافيزيقي ان الوقائع ليست اختبارية كلها ، فلا تخضع في الحكم على صدقها وكذبها الى الملاحظة ، كان ذلك في رأي الوضعي المنطقي ادعاء فارغا بحجة اننا متى جهلنا الملاحظات والتجارب التي تحقق صدق العبارة وكذبها جهلنا معناها . واذا انكر منكر امكان الحكم عليها بالصدق والكذب عن طريق الملاحظة والتجربة فانما حكم بنفسه على خلوها من المعنى . وكون العبارة ذات معنى يعني امكان اختبارها من حيث المبدأ على الاقل . هذا هو جوهر ما ينادي به الوضعي . فهو يقول : ان التثبت من صدق أو كذب عبارة واقعية يعتمد على الاكتشاف - بواسطة الملاحظة طبعا - ان الموقف الذي تؤكد وجوده موجود او غير موجود ، والقول انه لا يمكن من حيث المبدأ التثبت من صدق او كذب عبارة من العبارات معناها انه لا وجود

للموقف الذي تؤكد العبارة حصوله ، وان العبارة خالية من المعنى . فاذا اراد الميتافيزيقي ان يحافظ على مبادئه ، وجب عليه ان يبين انها اما نظريات مجردة خالية من محتوى واقعي اسوة بالرياضيات البحتة ، او عبارات واقعية يمكن اختبارها بالتجربة . ولما كان من المتعذر ان يأخذ بأحد هذين الرأيين ويظل في الوقت نفسه فيلسوفاً ميتافيزيقياً ، فلا سبيل له الا ان يهجر الميتافيزيقا ، ويسلم بان الموضوع الذي يحمله تافه لا معنى له . اذن فالقول بوجود طائفة من الحقائق الميتافيزيقية التي تختلف عن حقائق الخبرة العامة او حقائق العلم الطبيعي وعن العبارات التكرارية الشكلية الخالية من المحتوى الواقعي - اضحى وهما صرفا - واذا عرفنا الشروط التي ينبغي ان تتوفر في عبارة لكي تكون ذات دلالة ، ادركنا انه لا يمكن ان توجد عبارات ميتافيزيقية اصلا . واذا وصفت عبارة بأنها ميتافيزيقية ، قلنا انها هذيان لا اكثر ولا اقل .

هذا رأي الوضعيين المنطقيين في الميتافيزيقا ، اما قيمته فسنبين مداها فيما بعد . والآن اود ان اؤكد نقطة واحدة هي : ان هذه الحملة - بمعنى ما - كانت غير مباشرة . اذ لم تُعن بتقصي المبادئ الميتافيزيقية تقصيا نقديا ، بل بتصنيف العبارات المفيدة الى أنواع ، وانتهت الى انه لا يمكن ان تُعد كل هذه الانواع ميتافيزيقية . وهكذا نجد ان الوضعيين المنطقيين لم يقيموا الدليل على تهافت الميتافيزيقا بل اقصوها من ميدان الكلام المفيد . فالحملة التي يشنها الوضعيون على الميتافيزيقيا تستند الى الافتراض بأن تصنيفهم للكلام المفيد تام ، لأنه لو لم يكن كذلك ، لما انطوى استبعاد الميتافيزيقا من هذا التصنيف على التدليل على خلوها من المعنى .

اما اذا انتقلنا الى الموقف النعائلي الذي اتخذته كانت تجاه الميتافيزيقا وجدناه بالغ التعقيد لانه كان ادق واجبايا اكثر . وقد كان تناوله للموضوع افضل من اصحاب الوضعية المنطقية من ناحيتين مهمتين . فأولا ، ان حملة الوضعية المنطقية من شأنها ان تجعلنا نعتقد انها نفت وجود الميتافيزيقا بالتعريف ، اذ عُرِّفَت الميتافيزيقا - فيما يبدو - على نحو يؤدي الى تهافتها المحتوم . اما كانت فقد حاول على العكس من ذلك ان يقف على طبيعة العبارات (التأكيدات) الميتافيزيقية بروح جدية وودية - وثانيا ، مما يؤخذ على حملة الوضعية المنطقية المتأخرة انها توحى لنا بان من غير المعقول ان يكون اصحاب المواهب العظيمة كالفلاسفة بكل ما اوتوا من مواهب عقلية عظيمة انما كانوا يتناولون تفسير مبادئ خالية من المعنى كما زعم الوضعيون . اما كانت فقد رأى انه اول ما يتوجب علينا التوصل اليه تفسير السبب الذي يدعو اصحاب المواهب الممتازة من الناس الى بناء النظريات الميتافيزيقية . وعليه لم يكن القصد من نقده جعل الميتافيزيقا تبدو سخيفة او حائدة عن الكلام المفيد .

يقوم استبعاد الوضعية المنطقية للميتافيزيقا فيما وجدنا - على الرغم بانه اذا لم تكن العبارة المفيدة تكرارية شكلية وخالية من المحتوى ، وجب ان يكون في مقدورنا من حيث المبدأ الثبوت من صدقها او كذبها بواسطة الملاحظة والملاحظة وحدها . ولا شك في ان كانت Kant اطلع على هذه الفكرة التي جاء بها سلفه هيوم Hume ، وقال انها فكرة على جانب عظيم من الاهمية ، ولكنه ابى التسليم بها والسبب في هذا ان كانت اعتقد ان الخبرة البشرية لا توصف الا بنوعين من الاشياء . فأولا ، نستطيع ان نذكر

الخصائص المميزة للخبرة ، ونصطنع الملاحظة والتجربة لاكتشاف هذه الخصائص . وثانيا ، نستطيع كذلك - فيما يرى كانت - ان نذكر الخصائص العامة التي ينبغي ان تتوفر في الخبرة البشرية على الاطلاق لكي تكون كذلك . وبعبير كانت نستطيع ان نذكر شروط قيام الخبرة ، ولا سبيل في هذا المجال الى التثبت من ذلك بواسطة التجربة . لأن اذا كانت عبارة من العبارات تذكر شرطا من شروط قيام الخبرة ، فمن المحال على الخبرة ان تبين كذبها ، وعليه فلا داعي للرجوع الى الخبرة للتثبت من صدقها . على ان عبارة كهذه لا تحل - فيما يرى كانت - من قيمة ولا تعتبر نقيصة ، لأنه من الممكن اقامة اقوى الادلة عليها . وهي على اية حال تذكر شيئا عن الخبرة رغم ان الخبرة تعجز عن ان تبين صدقها او كذبها . وتُعد هذه العبارة وامثالا - بأصطلاح كانت - تركييبة Synthetic* وقبلية a prior; في وقت واحد ، اي انها تعبر عن وقائع ولكنها صادقة بالضرورة في الوقت ذاته .

بعد هذا ينتقل كانت الى دراسة طائفة من الافكار التي تختلف عن الافكار السابقة تماما . نذكر بعضا منها على سبيل المثال . يقول كانت ان الناس يميلون الى الاعتقاد بان معرفة الكون وطبيعته وتاريخه معركة كاملة ممكنة من حيث المبدأ . واذا كان الناس يدركون ان خبرتهم الفعلية ومعرفتهم بالكون لا بد ان تكون جزئية ومحدودة ، واذا كانوا يعتقدون كذلك انه لا يمكن ان يطمحوا الى الحصول على معرفة تامة بكل شيء ، فانهم يرون - مع ذلك - ان معرفتهم شذرة من كل مثالي وان خبرتهم جزء من نظام كلي يستغرق الاشياء والحوادث ، بل ولديهم مثال لتفسير الكون تفسيراً مطلقاً نهائياً . فالملاحظ هنا ان تفاسيرنا للحوادث لا تكون الا

بواسطة حوادث اخرى تفتقر هي الاخرى الى تفسير آخر . ولكن حين نقدم على توسيع قدرتنا المحدودة على التفسير ، ندرك اننا نسعى الى هدف يشقى علينا بلوغه ، غير انه يمكننا من تفسير الاشياء كلها تفسيراً كاملاً فالفكرة الأساس اذن هي فكرة الكمال Completeness التي تسعى قوانا وخبرتنا المحدودة الى بلوغها . وحين نسعى الى توسيع معرفتنا وادراكنا ، يعتقد باننا نقرب رويداً رويداً لتحقيق الهدف المثالي الا وهو معرفة الاشياء كلها معرفة كاملة .

ويعد الميتافيزيقي - في نظر كانت - رجلاً من رجال الفكر الذين وقعوا تحت سلطان فكرة الكمال هذه . فلا يسعى الميتافيزيقي الى ايجاد تفسير لهذا الشيء او ذاك ، بل للاشياء كلها ، وهو لا يبغى معرفة طبيعة بعض الاشياء بل الاشياء كلها ، ولا يصب اهتمامه على الامكنة والزمنة الخاصة ، بل على المكان كله وعلى الزمان كله . وقد يُعنى الميتافيزيقي - كما عُني لايبنتز - كالعناصر الأساسية التي تتكون منها كلها وبالسبب الاساسي لحدوث كل شيء . وقد يكون لاهوتياً يتخذ ارادة الله السبب للخلقة كلها والتفسير لنهائي لها . كما قد يكون من اصحاب المذهب الطبيعي الالهي - كسينوزا مثلاً - فيرى ان الاشياء بكليتها تؤلف نظاماً ملتصقاً يطلق عليه اسم الله او لطبيعة على حد سواء . ولكن مهما يكن الأمر فانه يُعنى على نحو او آخر الطبيعة الأساسية للحقيقة كلها وبالسبب النهائي والوصف الكامل لها .

على ان كانت يرى ان اعتبار الكون كلا متناهياً في المكان والزمان ومكوناً من الاشياء والحوادث والقول بانه ينبغي ان يُلتزم تفسير وجود الكون البيعته خارج الكون ذاته ويستند الى ارادة ومقاصد كائن اسمى - كلها

ضرب من الاغلاط والاهام . وليان ذلك نأخذ أولاً تناهي الكون في المكان والزمان . فنقول : اعتقد كائنٌ انه لا يمكن ان نبرهن على ان الكون متناه او غير متناه بواسطة الملاحظة ، وانه لا معنى للقول باننا قد بلغت وثبتنا حدوده او اننا حاولنا ذلك ولكن دون جدوى . واذا ادعى الميتافيزيقي بلانه يستطيع ان يسوق برهاناً قلياً على ان الكون ينبغي أن يكون متناهياً ، اجاب كائنٌ بانه في وسعه ان يأتي ببرهان آخر - لا يقل قوة ولا ضعفاً عن الاول - على ان الكون لا يمكن ان يكون متناهياً . واما القول بانه لا بد من وجود كائن اسـمى خارج مجال خبرتنا المحدودة فمعناه - في نظر كائنٌ - انه عصي على المعرفة واننا نتلاعب بالالفاظ عندما نقوم بوصف طبيعته وتحديد اغراضه . بل ويذهب كائنٌ الى حد القول ان هدف الميتافيزيقي الأساسي - وهو الحصول ليس على معرفة الاشياء المحدودة والمشرّطة بل على معرفة جملة الاشياء التي تتجاوز حدود الخبرة كلها - كافٍ وحده للتدليل على ان الاهداف التي تسعى الميتافيزيكا اليها عسيرة المنال . اذ اننا كائنات بشرية ، وتقتصر معرفتنا وادراكنا على ميدان الخبرة البشرية الممكنة ، لكننا اذا حاولنا ان نتخطى حدودها ، فاننا بالضرورة لا نفهم شيئاً مما نقوله ابداً ، ولا نستطيع التحدث عن اي شيء خارج هذه الحدود ايجاباً او سلباً . ولتوضيح موقف كائنٌ دعونا بقتبس فقرتين منه . يقول في أولها : « ليس ميدان العقل الصرف (الميتافيزيكا) موضوعاً للجدل . وعبثاً تحاول الأطراف المتنازعة التدليل على وجهة نظرها ، بل انها تصارع اشباحاً لأنها تتجاوز حدود الطبيعة ولا تستطيع هناك ان تفهم شيئاً . ومهما بلغت الجهود التي تبذلها في هذا السبيل ، فإن الأشباح التي فرقتها ارباً ارباً لا بد ان نحيا مرة

أخرى وتعود - كالأبطال في اسطورة فالهالا^(١) - لتداعبهم مداعبة خفيفة . ويقول في العبارة الثانية : « كلما سمعت ان كاتباً موهوباً قد برهن على حرية الارادة البشرية والخلود (الأمل في حياة اخرى) ، ووجود الله ، دفعني الشوق الى قراءة كتابه ، لأنني توقعت ان المعينة ستزيدني علماً بهذه الأمور . ولكن قبل ان اتصفح كنت على يقين تام بانه لم يدلل على مزاعمه هذه ، وليس السبب في ذلك انه لديّ براهين قاطعة على هذه القضايا المهمة ، بل لأنني متيقن انه كما ان العقل الصرف عاجز عن اقرار اشياء ايجابية في هذا الحقل ، فانه عاجز كذلك عن التدليل على عدم وجودها . . . فانها تقع خارج حقل الخبرة الممكنة ، وهي لذلك ليست في متناول الفهم البشري مطلقاً » . ويضيف كائنٌ قوله أنه لا يابه بقوة دفاع الميتافيزيقي عن وجود الله ، لأن الحجج التي يستخدمها بالية . فالنزاع بين المدارس الميتافيزيقية - فيما يقول كائنٌ - ينهك قوى الاطراف المتنازعة ، ولكنه طريف بالنسبة الينا ، وانه لا بد ان يساهم في توسيع مداركنا النظرية . فمعهما قلت جدوى هذه المنازعات ، فانها تشحذ عقولنا وترهفها .

وعما هو جدير بالملاحظة ان اعتقاد كانت الجازم بان معرفتنا وكذلك ادراكنا قاصران على ميدان الخبرة الممكنة وان محاولة الميتافيزيقي لتجاوز

(١) فالهالا Valhalla هي الجنة التي - فيما ترى الاساطير الاسكندنافية - تنقل اليها ارواح الابطال الذين يشهدون في القتال .

(المترجم)

حدودها لا تؤدي إلا إلى اللف والدوران اللفظي والافتتال مع الاشباح هذا الاعتقاد يجعلنا من دون شك نجنح إلى القول بأن كانت بعد الميتافيزيقا بحثاً سخيفاً لا فائدة ترتجى منه ولا معنى له فيما يقول الوضعيون ، ولكن كانت على العكس من ذلك ينظر إلى الميتافيزيقا بكل احترام وعطف ، ويعتبرها عملاً ذهنياً لا بد أن يتحدى العقل البشري ويغريه على مواصلة البحث ، ويقول : « ليس في وسع العقل البشري أن يستغني عن علم كهذا (الميتافيزيقا) وبالغاً ما بلغ الحكم الذي يصدره الناس على الميتافيزيقا - لا بالاستناد إلى طبيعتها بل إلى آثارها العرضية - من البرودة والازدراء فلا شك في أنه لا بد أن نعود إليها كما نعود إلى صديق اضطررنا إلى التخاصم معه . ذلك لأننا نغنى هنا بالغايات الأساس . » فمع أننا قد نأس من توسيع معرفتنا بهذه الوسيلة ، فإننا لن نتخلى عن المحاولة مطلقاً . « لأننا ما هنا تجاه وهم طبيعي لا مفر منه وليس هذا الوهم مما قد يقع الإنسان فيه نتيجة جهله ، ولا مما يصطنعه سوفسطائي لأحداث البلبلة في تفكير الناس بل أنه وهم لا يمكن فصله عن العقل البشري » .

ويرى كانت أنه ينبغي أن لا نتخلى عن الميتافيزيقا ، بل ولا يمكن أن نتخلى عنها مطلقاً لسببين رئيسيين : أولهما نظري والآخر عملي . فأولاً اعتقد كانت أنه إذا سعينا إلى توسيع معرفتنا بالعالم وفهمنا له بصورة منتظمة ، لا يسعنا إلا أن نعترف بقصور أبحاثنا من حيث المبدأ عن أن تكون كاملة ، وأن الأشياء تؤلف وحدة كلية أولها تفسير نهائي واحد وإن كنا في الأحوال الاعتيادية لا نأمل في الوصول إلى نتيجة نهائية مطلقاً . ولو انعدمت هذه الفكرة عندنا أو لم نهند بهديها ، لما أمكننا - فيما يعتقد كانت -

مواصلة البحث . ولكي نضمن ذلك ، ينبغي أن نتصور انه يمكن ان يكون هذا الجهد من حيث المبدأ كاملاً ، حتى وان عرفنا ان هذا المثل الأعلى فارغ في الحقيقة - وهذا مما دفع الناس ولا سيما الدائيين منهم على البحث الى الاعتقاد ، بان هذا المثل الأعلى ليس دافعاً ولا هادياً وحسب بل انه حقيقة واقعة كذلك - فنحن نزرع دائماً الى الظن باننا نستطيع ان نعرف دائماً ما لم يسعنا إلا التفكير فيه . وفي هذا الظن تقوم الميافيزيقا .

ثانياً ، اعتقد كائن ان خبرتنا الاخلاقية دعتنا الى القول ، ان العالم من خلق كائن قدير على كل شيء وعليم بكل شيء وان الناس كائنات روحية حرة ، وان الحياة ليست إلا تمهيداً لحياة ابدية بعد الموت ، وان التاريخ يتطور بحسب خطة معينة وهدف معين . وقد اصرر كائن على اننا لا نستطيع ان نعرف صدق اية عبارة من هذه العبارات ، ولكن من الناحية الاخرى لا حيلة لنا الا ان ننظر الى العالم على هذا النحو . والحقيقة ان كائن رأى ان هذا النظر من الأهمية بمكان بحيث اعتقد ان كشف المزايم الميافيزيقية الكاذبة يؤدي خدمة جليلة الى رجال اللاهوت ودعاة الاخلاق الميافيزيقيين . ولو كان باستطاعتنا ان نبرهن على عدم وجود الله والخلود والحرية وحرية الارادة والغرض من التطور التاريخي ، لكان ذلك - فيما يرى كائن - نكبة ، ولكن هذا الدليل على استحالة معرفة شيء عن هذه الامور اطلاقاً ينطوي بطبيعة الحال على انكار وجودها لا يقوم على اساس شأنه شأن اقرار وجودها . وان الاتحاد ليس اوفر حظاً من الايمان نفسه . من هذا نستنتج انه اذا قلنا ان العالم بما فيه من بشر هو من خلق الله الرحمن الرحيم ، فلا يمكن التدليل ادا على اننا مخطئون . وينبغي علينا أن ننظر الى

العالم على هذا النحو ، ونستطيع ان نؤكد بانه في امكاننا ان نفعل ذلك دائماً . ولكن نيل في الوقت نفسه الى الظن في أننا نستطيع دائما ان نعرف ما نفكر فيه على هذه الصورة - الأمر الذي يؤدي الى قيام الميتافيزيقا . وهكذا نجد ان البحث الميتافيزيقي ورغم كونه وهماً صرفاً - شيء طبيعي للعقل البشري من ناحيتين : فان بعض المفكرين يبدون استعدادهم دائماً لخوض هذا الموضوع ، وانهم - كما قال كائنث - يستحقون احترامنا وتقديرنا مع انه لا أمل في ان تثمر جهودهم . وعلى الأرجح انهم يقدمون خدمة جليلة بطريقة غير مألوفة وغير مباشرة .

بعد هذا نحاول ان نبين جوانب القوة في هذين النقيدين للميتافيزيقا . نلاحظ انه مع فائدة الحملة التي شنتها الوضعية على الميتافيزيقا ، فانها لم تكن وافية من الناحية الفلسفية ، لأنها لم تتوصل الى نتيجة باطلة بل لأنها توصلت الى تلك النتيجة بصورة مبسرة ، وان تصنيفها لأنواع العبارات المفيدة لا يخلو على اية حال من الضعف في كثير من النواحي . لكن الاهم من ذلك انه اذا اردنا ان نقصي الميتافيزيقا ، فلا بد ان نحدد اهدافها وطبيعتها ومن ثم نبين ان تلك الاهداف عقيمة وان طبيعتها مدعاة للريبة . غير ان الوضعية المنطقية لا توفي هذه النقطة حقها . فاذا كانت الوضعية المنطقية قد برهنت على انه لا يمكن قبول النظرية الميتافيزيقية على نحو ما تقبل فيه النظرية العلمية وانه لا يمكن الثبت من صدقها او كذبها على نحو ما يحصل في النظريات العلمية ، واذا كانت كذلك قد بينت ان النظريات العلمية لا تحتاج الى نظريات ميتافيزيقية تتخاها اساسا لها ، وانه ينبغي الا تدحض على اسس ميتافيزيقية ، فإن ذلك لا يعني انها حاولت محاولة جديدة

لتحديد طبيعة النظرية الميتافيزيقية ، والظاهر ان هؤلاء النقاد قد القوا نظرة عجلى وغير ودية على الميتافيزيقا لكي يقوضوا معالمها جملة وتفصيلا دون تحشم. قراءة المؤلفات الميتافيزيقية العويصة ورأوا انه لا جدوى من الميتافيزيقا على اية حال . ولكن لا مزية في أن من وقفوا ضد هذه الحملة شعروا ان الميتافيزيقا قد استبعدت دون مبرر . وان الحكم على الميتافيزيقا بالخلو من الدلالة قد بلغ في المذمة مبلغا ثبط العز على النظر فيها بانصاف . أما كانت ، فانه على العكس من ذلك قد حاول أن يفهم طبيعة الميتافيزيقا ، ولم يؤول ثغراتها على نحو جعلنا ننكر على الميتافيزيقيين أن يكونوا أذكى الناس . ودرس كانت عدداً كبيراً من الحجج الميتافيزيقية بصورة مفصلة وعمل بكل ما أوتي به من جد وقوة بصيرة الى تعيين الخطأ في كل مرحلة منها .

يضاف الى هذا ان كانت قهيم الموضوع فهماً أعمق ، فبينما يكتفي الوضعي بالقول انه لا يمكن الثبت من المبادئ الميتافيزيقية ولا تكذيبها ، يقدم كانت لكل مسألة سبباً ، وبتعبير آخر ، يأخذ الميتافيزيقي فيما يرى كانت احد المفاهيم التي تستخدم عادة في حقل معين دون نظر الى صوابه أو خطئه ومن ثم يقوم بتطبيقه على ذلك الحقل في جملة . ولما كان التقابل بين استخدام المفهوم بصورة صحيحة واستخدامه بصورة خاطئة لا تكون الا ضمن هذا الحقل ، فان تطبيقه على الحقل كله يحول دون امكان اجراء مقارنة بينهما . ففي ميدان الشؤون البشرية مثلاً نقول ان بعض الأشياء تحصل من أجل تحقيق غرض معين وبعضها لا يحصل . وعليه فالعبارة بأن شيئاً معيناً قد حدث من أجل تحقيق هدف ما تحمل الصدق والكذب . أما

إذا أخذنا بالعبارة الميتافيزيقية القائلة بأن كل شيء يحدث لتحقيق إرادة الله ، فإن ذلك يتضمن أنه لا يمكن أن تحصل أية حادثة دون أن تحقق إرادته تعالى تلك . ولكن إذا كان الأمر كذلك ، فلا يمكن من حيث المبدأ أن تُعدّ أية حادثة دليلاً على صدق هذه العبارة ولا على كذبها . وعليه فسيان أن أقررت هذه العبارة أم نفيتها ، أو كما يقول كانت أنه لا يمكن أن يكون (ميدان العقل المصروف موضوعاً للجدل) إذ لا سبيل إلى حسم الخلافات الظاهرية هناك . وعلى النقيض من ذلك يرى هذا الفيلسوف أن الوقوع في هذه الدوامة الجوفاء ليس عصياً على التفسير وليس مجدياً تماماً . والسبب في كونه مفيداً أنه إذا لم يكن في استطاعتنا أن نؤكد أو ننكر أن العالم في الحقيقة يسير بمقتضى إرادة الله وحكمته ، فإننا نستطيع - بل وينبغي - أن نتصوره يسير بمقتضاها . وأما السبب في كونه غير ممتنع على التفسير فهو أن العبارة الميتافيزيقية على رأي كانت ليست إلا التطبيق النهائي الذي ينطوي على مطامح خطيرة لفهوم نستخدمه في هذه المرحلة استخداماً صحيحاً .

وبعد ، فهل نخلص من ذلك إلى أن تحليل كانت لقوى العقل البشري وحدوده وإساءة استعماله تحليل كامل ونهائي فيما زعم هو بكل فخر واعتزاز ؟ وهل نجح أخيراً في تحديد مكانة الميتافيزيقا وإظهار ما لها من قوة وقيمة على أفضل وجه ؟ الجواب كلا . والسبب أن الميتافيزيقا ذات جوانب متعددة لم يدركها كانت في جملتها ، والحقيقة أننا نجد في مؤلفات كانت ذاته عنصراً بارزاً يمكن اعتباره ميتافيزيقياً يعكس في ناحيتين . فالأولى ، بالرغم من تأكيده الشديد على أن إدراكنا قاصر على ميدان الخبرة الممكنة وإن عيب الميتافيزيقا يقوم في محاولة تجاوز حدودها فإنه لم يبد تردد في مقارنة عالم

الخبرة البشرية من حيث انه « مظهر » بعالم الاشياء بالذات الممتنع على الادراك « المعرفة » من حيث المبدأ . ومن الطريف ان نذكر أن كائن لم يشعر بوجود تناقض بين الاعتقاد الراسخ بوجود هذا العالم « الحقيقي » وبين القول انه لا تمكن معرفة أي شيء عنه اطلاقاً . وثانياً ، اعتقد كائن انه باستطاعتنا أن نكتشف مرة واحدة ونهائياً الخصائص الجوهرية لأية خبرة بشرية ممكنة ، وإذا كان قد اعتقد انه من المحال أن نتخطى حدود الخبرة ، فإنه رأى أن التوصل الى تحديد « وصف » عام نهائي كامل للخبرة من داخلها بالذات شيئاً ممكناً . وقد عُني كائنٌ - كما عُني كل ميتافيزيقي - « بالخارطة كلها » أي بالمفاهيم الأساس التي تستخدمها في كل مكان وليس في هذا المكان أو ذاك .

والآن اذا كان كائنٌ قد استطاع أن يرسم الخارطة في جملتها على نحو معين ، فإن أي فيلسوف آخر يستطيع إعادة رسمها على نحو آخر . ولا يمكن أن نقول ها هنا أن بعض المفاهيم الأساس الخاصة دون غيرها تنطبق على الخبرة البشرية ، لأن المفاهيم التي تستخدمها الكائنات البشرية تحدد بصورة جزئية - فيما قال كائنٌ - باصرار - طبيعة الخبرة البشرية ذاتها . فمحاولة وضع طائفة من المفاهيم الأساس لا تحول دون قيام الميتافيزيقي بإعادة النظر في هذه المفاهيم ، ولا بد أن نشير الى ان كانت لم يذكر أسباب استحالة إعادة النظر في المفاهيم ، وأنه ليس في الامكان التدليل على ذلك دون اثاره الربية حول صحة منهجه هو . وبتعبير آخر ، لا يستطيع كائنٌ أن يضع حداً فاصلاً بين « ميتافيزيقا الطبيعة » التي يمكن فيما زعم البرهان عليها والميتافيزيقا الجدلية الوهمية التي استنكرها بشدة .

نستنتج من هذا انه لا يمكن القول بان نقد كائنات للميتافيزيقا - على قوته وعمقه - قد وضع حدا لهذه المسألة ، فلا شك في انه من الممكن أن نستخدم الفاظاً عامة في وصف بعض الجهود العقلية الميتافيزيقية التي نعدّها وهمية وفارغة ، ولكننا في حالات خاصة لا نجد لنا معدى عن اكتشاف أهداف الفيلسوف وتقدير قيمة الحجج التي يستخدمها . ومما يزيد في تعقيد هذه المهمة انه لا يمكن الاعتماد على الفلاسفة في الحكم على طبيعة مبادئهم ومقاصدهم الخاصة . انهم يضلّلوننا كما نضلّل نحن أنفسنا ، بل أن الذين يؤمنون ان الميتافيزيقا شرك ينبغي أن تتجنبه قد يقعون فيه دون علم بما هم اليه صائرون . على ان كائنات على الاقل لم يكن ليبيدي دهشة من هذه الحقيقة . اذ انه يقول اننا لا نستطيع الا في لحظات متقطعة ان نحرر أنفسنا من مواطن الضعف في العقل البشري .

الفصل الثامن

Final Discussion

مناقشة ختامية

انتوني كونتن^(١) Anthony Quinton: من الأمور التي تساعدنا على تلخيص هذه المقالات تحقق قدر لا بأس به من الاتفاق بين اسلافنا من الفلاسفة حول طبيعة الميتافيزيقا . ويكاد الميتافيزيقيون ، يجمعون على أن الميتافيزيقا هي إعادة النظر في المفاهيم أو مراجعتها ، واعتقدوا ان أهم شيء في بناء نظام ميتافيزيقي هي الايصاء باطار أو طائفة من المفاهيم التي يمكن أن تفسر خبرتنا في جملتها . ولا شك في اننا نصف حوادث العالم ونفسرها بواسطة طائفة (أنظمة) من المفاهيم الفيزيائية والبيولوجية والنفسية المستقلة عن بعضها البعض جزئياً والمتداخلة مع بعضها البعض جزئياً . لكننا ندرك أن هذه الانظمة الجزئية من اختيارنا وان تطبيقها على الموضوع الواحد ذاته ربما ادى احيانا الى التناقض . ويعمد الميتافيزيقي في حل هذا التناقض الى اختيار نظام جزئي من المفاهيم واعتباره اداة وافية لوصف الخبرة وتفسيرها في حين تعتبر الانظمة الجزئية الاخرى نافعة دون

(١) كونتن ، انتوني Anthony Quinton استاذ الفلسفة في جامعة اكسفورد وصاحب مقالات مثيرة نشرت في المجالات الفلسفية

(المترجم)

ان تكون وسائل عملية جديدة بثقتنا التامة ، ونرجس، البحث في
اعتراضات التي سبقت على طريقة الدفاع عن اعتبار الميتافيزيقا عملية
مراجعة للمفاهيم . غير انه ينبغي أن نعرف انها كانت في الغالب نافعة ،
فالنظرة الميتافيزيقية التي وضعها ديكارت في الطبيعة - وهي ان العالم
الطبيعي نظام من الاجسام المادية التي تتفاعل مع بعضها البعض تفاعلا
آليا ولا تتصف الا بصفات قابلة للقياس . . . لم يؤد الى النهوض
بالفيزياء في القرن السابع عشر فقط بل حددت مصطلحاته أيضاً ، ويمكن
أن يقال أيضاً أن ميتافيزيقا هيكل كان لها أثر مماثل في الدراسات التاريخية في
القرن التاسع عشر . من هذا نخلص الى ان اعتبار الميتافيزيقا نظاما موحدًا
من المفاهيم ليس معناه انها مجهود تافه ومغلوط على أية صورة من الصور .

ميري ورنك^(١) / Mary Warnock : تتميز الميتافيزيقا بشيء آخر ألا وهو
الشمول Comprehensiveness . فقد زعمت الانظمة الميتافيزيقية بأنها
تقدم الينا معرفة كاملة وكلية ، أي انها تهنيء لنا تفسيراً كلياً لكل شيء . ولا
أكون مغالية اذا قلت انه ينبغي على كل نظام ميتافيزيقي ان يدعي ذلك . اذ
أن الانظمة الميتافيزيقية كلها تحاول على نحو ما ان تتجاوز حدود المعرفة
البشرية الشرطية والناقصة للوصول الى شيء كامل ناجز بصورة مطلقة .

انتوني كونتن : قد تكون النظرة القائلة بان الميتافيزيقا تحاول ان تقرر
المعرفة الكاملة أو تقدم تفسيراً كاملاً للمكون مدعاة الى التضليل . لأن

(١) ورنك ، ميري Warnock Mary استاذة الفلسفة في جامعة اكسفورد .

الميتافيزيقي لا يسعى الى جمع موسوعة من المعارف بطريقته البرهانية الخاصة .

واذا كان هيكل - ومثله لاينز الى حد - أعتقد بأن الحجة الميتافيزيقية موسوعية فان هذا الاعتقاد لم يكن شائعا بين الميتافيزيقيين . والاغلب انهم عنوا بوصف الكون الذي نعيش فيه . واذا أخذنا ذلك بنظر الاعتبار أصبحت العلاقة بين التأويلين أوضح مما كانت . لأن وصف تركيب الكون بما هو كل - كالقول بأنه تصميم معقول وضعه كائن عاقل أو انه مأكنة - يتضمن استخدام نظام معين من المفاهيم الملائمة لوصفه .

جلبرت رايل Gilbert Ryle : حسنا ، لكن الفيلسوف لا يُعدّ عادة ميتافيزيقيا لمساهماته في إعادة النظر في المفاهيم فقط ، بل قد يُعتبر ميتافيزيقيا حتى اذا لم يسترشد به رواد العلم في وضع ابحاثهم النظرية ، فينبغي على الميتافيزيقي - فيما هو معروف عادة - ان يقرر وجود أو حدوث أشياء غير مرئية - ويفسرها بعقل فلسفية أو ذهنية بحتة . واذا لم تكن له نظرة في الوجود لم يكن ميتافيزيقيا .

وبحاول الميتافيزيقي - بصورة خاصة - ان يقيم الحجج على صدق عبارات تتصل بوجود الله أولها أهمية من الناحية اللاهوتية على الاقل ، وقد تكون في هذه العبارة أحيانا بعض الطرافة لأنها تفاجئنا من الناحية اللاهوتية كما تفعل المادية Materialism ومذهب التآليه Deism ومذهب وحدة الوجود Pantheism ، وبما هو جدير بالإشارة الى ان ارسطو استخدم كلمة « اللاهوت Theology واتخذها نواة للبحث الذي عُرف بعد

وفاته باسم « الميتافيزيقا » . واذا ندب الناس حظ الميتافيزيقا المحتضر ، فلاهم يلاحظون انها لا تتضمن اللاهوت الفلسفي البناء ولا ما يشبه اللاهوت .

ويستطيع فلاسفة اللاهوت - بطبيعة الحال - أن يقوموا بمراجعة المفاهيم وارشاد رواد العلم في أبحاثهم . وقد تكون افكارهم اللاهوتية مصدر أفكارهم في هذه الميادين الأخرى ، وتحت سلطانها . ولكن سبب اعتبار الفلاسفة ميتافيزيقيين ليس هذه الافكار الطبيعية بل تلك الأفكار التي تتجاوز الطبيعة .

والقول بأن المساهمين في هذه السلسلة من الاحاديث كادوا يلتزمون جانب الصمت حول المدلول التقليدي للميتافيزيقيين انه لم يبق لدينا بقية من الحماسة التي كانت عند الناس قبل مائتي أو ثلاثمائة سنة خلت لللاهوت ضده . ولا نكاد نلاحظ الحقيقة القائلة أن الميتافيزيقيين السلبين كانوا معنيين بشؤون الدنيا ، وربما معنيين بأمور أخرى كذلك ، وان اسلافنا قد استطارتهم الدهشة اذ وجدوا اننا سلمنا بذلك .

ميري ورنك : أوافق على أن البحث في اللاهوت كان من أهم الصفات المميزة للميتافيزيقا ، ولكنه لم يكن - فيما اعتقد - ضرورياً لها . وقد نشأت الرغبة في اتخاذ نظام ميتافيزيقي في الغالب من الميل الى دواسة الكائنات البشرية والحياة البشرية في سياق (اطار) يشمل كل شيء في الوجود . والظاهر ان الميتافيزيقيين أنفسهم سعوا الى تحقيق هذا الخدع ، وان الناس الذين لا صلة لهم بالفلسفة من قريب أو بعيد يتوقعون من الميتافيزيقيين ان يقدموا مثل هذا الاطار الواسع الذي يشملهم انفسهم .

انتوني كوتن : وهل يعنى هذا ان الناس يريدون ان يعرفوا كيف تؤلف الكائنات البشرية مع الاشياء الأخرى وحدة في الكون ؟

ميري ورنك : أجل ، وقد يؤدي هذا بطبيعة الحال الى نظام ديني معين تعتبر معه الحياة البشرية - مثلا - تحقيقا لأرادة الله ، ولكن ليس ثمة ضرورة لذلك ، فان المادية أيضا نظام ميتافيزيقي سواء بسواء وتضطنع اطارا توضع فيه الكائنات البشرية لكي تُرى على حقيقتها ولكي تأخذ مكانها الخاص بالنسبة الى سائر الكون . واعتقد أن الميتافيزيكا - من هذه الوجهة الانتولوجية - وثيقة الصلة بالعلم والدين على حد سواء .

جلبرت رابل : يمكن ان نعد هوبز^(١) Hobbes مثلا واردا للميتافيزيقي العلمي . فحين قال ان كل ما هو غير مادي لا يؤلف جزءا من الكون ، فإنه من دون شك كان قد وقع تحت تأثير العلوم الطبيعية في القرن السابع عشر .

انتوني كوتن : أوافق على ان القول بأن الميتافيزيقيين يعيدون النظر في المفاهيم أو يراجعونها إنما هو تفسير لفعالياتهم أكثر مما هو وصف لها . وأوافق كذلك على ان الميتافيزيقيين يسعون الى تقديم نظرية في الوجود أي صورة عامة عن العالم . ولكن لا يستتبع هذا انهم ينكرون تشعيرهم لمراجعة المفاهيم ، اذ يرون انه اذا أمكن البرهان على صحة نظرية في

(١) هوبز ، توماس Thomas Hobbes (١٥٨٨ - ١٦٧٩) ، فاحوف انكليزي يدين بالمادية الالية . فالعالم في رأيه هو مجموع الاشياء التي تخضع لقوانين الحركة الالية ، وفسر الاحساس والتفكير بواسطة حركة المادة .

(المترجم)

الوجود - أي وصف تركيب الكون - لزمّت عن ذلك نتائج مهمة على المستوى الذهني . فمثلاً اذا كانت النظرية المادية في الوجود - القائلة بأن الكون نظام من الاجسام المادية التي تؤثر بعضها في بعض بفعل الصدمة - صادقة ، وجب ان يكون نظام معين من المفاهيم المتضمن في لغة الميكانيك الكلاسيكية صحيحاً ، وان تكون الانظمة الاخرى كلها - مهما كانت ملائمة للأغراض العلمية المباشرة - غير وافية ومخطئة . من هذا يتبين أن صدق النظرية الوجودية هي التي تبرر اقتراح نظام من المفاهيم باعتباره الخط السليم للتفكير .

جلبرت رايل : لا شك بأن الميتافيزيقي يأبى تفسير فعالياته من حيث انها وسيلة لمراجعة المفاهيم ، ذلك لأن مثل هذا التفسير - وان كان مهماً جداً في رأيه - يغفل عن صفة مميزة اساسية فيه .

انتوني كونتن : ان الميتافيزيقي لن يسلم بالنظرة القائلة ان الميتافيزيقا ليست الا هذه الوسيلة ، لأن هذه النظرة تتجاهل ادعاءه بأن المراجعات التي تنطوي عليها نظريته في الوجود صحيحة . والحقيقة ان عدداً كبيراً من الفلاسفة - ولعلهم جلهم - لعلى ثقة بانه لا يمكن البرهان على صحة أية قضية في مبحث الوجود (الانتولوجيا) ، ولكنهم في الوقت نفسه ، يجمعون على ان للميتافيزيقا أثراً كبيراً في طرق تفكيرنا المتوارثة . ونجد في هذا التأويل (للميتافيزيقا) جاذبية لأنه يفسر كيف يمكن ان يحصل هذا التأثير مع بطلان الاسس الانتولوجية التي يقوم عليها .

ميرى ورنك : أن الاوان لكي نتساءل : كيف يمكن تبرير هذه المراجعات في المفاهيم مع افتراض امكان تبريرها مطلقاً ؟

انتوني كوتن : إذا افترضنا ان هذه المراجعات لا يمكن ان تستند الى نظريات في الوجود مفروغ من صحتها ، أمكننا فيما يبدو ان نتخذ مواقف ثلاثة بشأنها : فأولا يمكن أن نتخذ موقفا محافظا ومسالمًا مفاده ان نظام المفاهيم في صورته التي نعرفها صحيح تمامًا . وان التناقضات والأضطرابات التي نصادفها من وقت لآخر تنشأ من تقصير منا في تناوله . وبحسب هذه النظرة تصبح مهمة (وظيفة) الفلسفة أيضا ح نظام المفاهيم الحالي من حيث هو كل تدريجا دون اصلاحه او استبدال نظام آخر به ، وهذه النظرة تمثل مبادئ فتنكشتاين المتأخرة بصورة عامة .

ميري ورنك : حقا ان فتنكشتاين ما كان ينكر انه يمكن تغيير نظام المفاهيم عندنا . والدليل على ذلك ما ذكره في الالعب اللغوية Language Games

انتوني كوتن : لم ينكر فتنكشتاين امكان قابلية نظام المفاهيم للتغيير ، لكنه لم يجد من الضروري اعادة النظر فيه ، واعفى الفيلسوف من القيام بذلك . ويبدو على النقيض من هذا ما يدعو اليه كارناب مما يُعرف بالتخير الفهمي Conceptual Libertarianism ، والذي مؤداه رفع الحرج عن الانسان في اختيار ما يشاء من الأنظمة التي تنسجم مع المفاهيم ، اللهم الآ اذا كانت معقدة أو غير مألوفة . وأخيراً يمكن القول ان أنظمة المفاهيم خاضعة لاختبار المحاولة والخطأ العملي (البراغماتي) Pragmativ - مثلها في ذلك كمثل النظريات العلمية التي نستعين بها في صياغتها - فقد طبق نظام المفاهيم الآلية الذي أدخله ديكارت في دراسة الفيزياء في القرن السابع عشر - كمفهوم الكتلة والسرعة والتسارع وما الى ذلك - بنجاح باهر . ومن

الناحية الاخرى لا تزال مسألة نظام المفاهيم الذي ينبغي استخدامه في الدراسة التجريبية الواسعة للسلوك البشري موضع أخذ وردّ . فالاقتصاد النظري - مثلاً - قد تحرر مؤخراً من مفاهيم علم النفس النفعي بعد ان كان يستخدم مصطلحاته للتعبير عن أسسه .

جلبرت رايل : نعود الى السؤال : هل من الخطأ محاولة التذليل على صدق القضايا المتعلقة بالوجود؟ لقد كشف كل من هيوم، وكانت المغالطة التي تنطوي عليها كل الحجج التي تستخدم أشياء ذهنية صرفة للبرهان على قضايا تتعلق بالوجود ، ولا يميل احد من الفلاسفة اليوم - فيما ارى - الى بعث تلك الحجج واعادة الاعتبار اليها ، فلم يعد التفكير النظري في الوجود ذا قيمة . ولا بد من ان تقوم الاجزاء الواقعية من المبادئ الكونية واللاهوتية على أسس ليس لها بالفلسفة علاقة .

ولا ينبغي أن نمتنع من ينكر هذه الأمور . فان علماء الفلك افادوا كثيراً - في محاولتهم تحديد مدارات النجوم السيارة - من استخدام طرق كبلر Kepler المستندة الى البيانات التي يكشفها لنا التلسكوب بدلاً من حجج أرسطو القبلية . ومن الناحية الاخرى لا يُعاب على الحجج الفلسفية بعجزها عن اقامة البرهان على مسائل تتعلق بواقع النجوم السيارة فان وظيفتها شيء آخر غير هذا .

ورب معترض يقول : « واذا ساغ لعلم الفلك ان يقوم على بيانات اختبارية لا اعتبارات قبلية ، فان ذلك لا يسوغ في علم اللاهوت ، لأنه اذا كانت النتائج الواقعية التي يتوصل اليها علم الفلك تقوم في التوصل الى معارف معلق باجسام مرئية أخذاً من بيانات تقدمها أجسام مرئية أخرى ،

فإن النتائج الواقعية في اللاهوت - لقيامها في الاستدلال لاشياء تمتنع على الرؤيا - لا بد أن تبدأ من مقدمات غير قابلة للملاحظة . ولا يستطيع أحد أن يبيء هذه المقدمات الالميتافيزيقي . الجواب : ان هذا الاعتراض واه ، مثله مثل اعتراض مسافر امتنع ان يتزود بالوقود في محطة التعبئة ، وعندما نفذ وقوده أصرَّ على انه ينبغي على مخزن الحلويات ان يكون قادراً على تزويده به بحجة انه لا يستطيع ان يقود سيارته الى البيت بغير ذلك .

والسبب في تقادم العهد على الانتولوجيا في غاية البساطة . اذ يمكن أن ننفي أية عبارة تقرَّ وجود شيء - شأنها شأن كل عبارة تؤكد حدوث شيء - دونما تناقض منطقي . ولذلك فلا يمكن أن تكون أسباب تأكيد وجود شيء أو حدوثه أموراً ذهنية صرفة ، وإذا كان في متناولنا أفضل الأسباب الممكنة لاستنتاج وجود شيء أو حدوثه ، فإن هذه الاسباب يجب أن تتضمن بيانات اختبارية نحصل عليها عن طريق الابحاث التجريبية لا الذهنية الصرفة . وحين نريد أن نعرف ما هو كائن أو ما كان في الكون ، يترتب علينا ان نحري أجزاء خاصة من الكون ذاته ، ولا يمكن ان يُستبدل بالتحري التصميم الذي يضعه المهندس المعماري أكثر من امكان اتخاذ المضم بديلا عن الاكل أو التفلسف بديلا عن البحث عن الادلة ، ذلك ان التفلسف جهد لتقصي الروابط البنائية بين النظريات التقنية أو الانظمة غير التقنية من الافكار التي تكون اكتشافاتنا الواقعية بمثابة الأسس لها .

انتوني كوتنن : لا شك في وجود اعتراضات عامة على محاولة البرهان على قضايا تتعلق بالوجود . فلا نستطيع ان ندلل على ان حقيقة من الحقائق

المتعلقة بالموجودات ضرورية من الناحية المنطقية وحتى اذا اصطنعنا لغة أصحاب مبدأ التحقق فلن نستطيع ان نغير تلك الحقيقة ذاتها بقولنا : لا تسلم أية عبارة خبرية تتصل بالعالم من تفنيد تفنيدياً تجريبياً . كما لا تقبل المفاهيم التي نستطيع استخدامها ضمن العالم بالضرورة التطبيق بصورة مفيدة على العالم في جملته . ولكي نتيين وجهة هذه الاعتراضات لا بد لنا من ضرب امثال تشخص البرهان الميتافيزيقي .

فالبرهان الانتولوجي على وجود الله البسيط والمشهور يبدأ بتعريف الله من حيث أنه أكمل كائن ، ولا يمكن تصور ما هو أكمل منه ، وهو تعريف واف بقدر معقول . فاذا وجدنا شيئين متماثلين في كل وجه باستثناء ان أحدهما موجود والآخر غير موجود ، فبين أن الأول الموجود أكمل من الآخر . واذا فرضنا ان الله غير موجود ، امكنا ان نتصور كائنا اكمل منه ، أي كائناً مماثلاً له في كل ناحية لكنه موجود في الوقت نفسه ، وهكذا فان الله الذي افترضناه ليس هو الله الذي عرفناه . فالقول بان الله غير موجود ينطوي على تناقض ، ولذلك فواجب ان يكون الله موجوداً بالضرورة . لكن هذه الحجة - في نظر كثير من اللاهوتيين - تستند الى الافتراض المغلوط بان الوجود صفة ، وكما قال هيوم ليس ثمة اختلاف بين تصور شيء وتصور وجوده : اذ ان تصور شيء ليس الا تصوّره باعتباره موجوداً .

فالوجود مفهوم صوري ، غير ان هذه الحجة تنظر اليه وكأنه مفهوم غير صوري أشبه بالمقاومة أو الثبات .

ميري ورنك : ويمكن أن نقول الشيء ذاته على البرهان الذي جاء به

لوك^(١) Locke من ان لكل حادثة سبباً . فاذا فرضنا ان شيئاً حدث دونما سبب ، استطعنا عندئذ ان نقول انه جاء من العدم ، ولما كان من المحال ان يكون العدم سبب شيء ما ، توجب ان يكون شيء ما سبباً لكل شيء ، وان يكون لكل حادثة سبب . والملاحظ هنا كذلك ان هذه الحجة تقوم على التلاعب في مفهوم صوري (هو اللاشيء أو العدم) . ذلك انه يمكن تأويل المرحلة الخطيرة في الحجة - وهي انه من المحال ان يكون لا شيء (عدم) سبب شيء - على نحوين : فأولاً نستطيع ان نقول ان الحجة تتطوي على مغالطة المصادرة على المطلوب بالتاكيد على انه من المحال ان يكون شيء بدون سبب . لكن لوك - فيما يبدو - يفسرها على وجه آخر ، فيقول ان العدم (اللاشيء) أضعف من أن يستطيع ان يكون سبباً لشيء . وهذا يتضمن ان العبارة « ان لا شيء أو عدما هو سبب هذا الشيء » ، تعني ان « العدم - وهو موجود - سبب حدوث هذا » . وهو تأويل لا معنى له للجملة « ليس لهذا الشيء سبب » .

انتوني كونت : ليست البراهين الميتافيزيقية كلها بسيطة هذه البساطة ، ولا تقوم كلها . فيما أرى - على الخلط في استعمال مفاهيم صورية كالوجود واللاشيء (العدم) . بل تمثل هذه الأمثلة - مع بساطتها - البراهين الميتافيزيقية ، وتهيء لنا - بواسطة نقد الحجج الميتافيزيقية - الفرصة

(١) جون لوك John Locke (١٦٣٢ - ١٧٠٤) فيلسوف انكليزي كان أول من بحث في نظرية المعرفة بصورة منظمة ورد معرفتنا الى الاحساس وانكر الافكار الفطرية ، ويعتبر لوك مؤسس التجربة Empiricism في الفلسفة الحديثة .
(المترجم)

للاستزادة من ادراك المفاهيم الصورية من ناحية ، واطهار عيوب
الانتولوجيا البرهانية من ناحية أخرى .

ميري ورنك : ان النقطة التي تستلقت نظري هي ان هناك خطراً في
التحدث عن « الحجج الميتافيزيقية » أو « البراهين الميتافيزيقية » وكأنها تؤلف
فصيلة واحدة واضحة المعالم جلية القسما . اذ يوحي ذلك ان الحجج او
العبارات الميتافيزيقية تشترك في خصائص مميزة يجعل نقدها أو تنفيذها
بالجملة في حيز الامكان مع انه لا يمكن - فيما اعتقد - ان نعتبرها كذلك . اذ
لا توجد معايير نستطيع بواسطتها ان نعرف هل ان عبارة من العبارات
ميتافيزيقية أم لا . بل يمكن ان تكون كل عبارة - كائنة ما كانت -
ميتافيزيقية . الأمر مرهون بالغرض الذي تُستخدم الحجة من أجله وبمعنى
العبارة في سياقها . واذا لم تسعنا الحال الى استخدام معيار حاصر لتمييز
العبارات الميتافيزيقية من غير الميتافيزيقية ، توجب علينا ان ندرس كل عبارة
على حدى ، وامتنع علينا استخدام تفنيدات حاضرة كذلك .

فلا نستطيع ان نفصل العبارات عن سياقها ومن ثم نبين هل انها
ميتافيزيقية أم لا . من هذا نستخلص انه اذا اردنا نقد الميتافيزيقا ، وجب أن
نلجأ الى أساليب مماثلة لأساليب كانت لا أساليب الوضعيين المنطقيين ، وقد
درس كانت الحجج الميتافيزيقية واحدة واحدة - او على الاقل درس عدداً
كبيراً منها - ولم يستبعدها كلها بالجملة كما فعل الوضعيون المنطقيون دون
تفحص .

انتوني كوتن : أعتقد أن الصعوبة في تحديد معنى كلمة « ميتافيزيقي »

أدى بك الى المغالاة والتطرف في هذه الناحية . واذا كان بعض الناس يميلون اليوم الى اطلاق وصف الميتافيزيقية على كل ملاحظة فلسفية يتكرونها وكل قضية فلسفية متناقضة معارضة للحدس ، فليس ذلك إلا نتيجة مألوفات لغوية سيئة شائعة : ومن هذه المألوفات استعمال لفظي « شيوعي » Communist و « فاشي » Fascist في اهانة الاشخاص في المناقشات السياسية الحادة . وأني أوافق على انه لا يوجد معيار كامل لمعرفة كون عبارة ما ميتافيزيقية . لكن هذا لا يعني ان كل عبارة قابلة لأن تكون ميتافيزيقية وذلك لأننا نستطيع ان نضع الحد المانع للعبارة الميتافيزيقية على الاقل . فنقول : لا يمكن أن تكون عبارة ما ميتافيزيقية الا اذا كانت في وقت واحد متعلقة بماهية الاشياء - لا لفظية - وعامة جدا . وقد تتصف عبارة بهذه الاوصاف دون أن تكون ميتافيزيقية . ولذلك ينبغي أن نبحث كذلك الأسباب التي دعت اليها ، فالقول « ان الاعمال البشرية انانية » ، لا يُعتبر ميتافيزيقيا اذا كان قائماً على الخبرة المؤلمة عن الحياة لا على حجة برهانية . ومن ناحية أخرى اذا كانت عبارة عامة متعلقة بجواهر الاشياء قابلة للبرهان « أو ظن انها كذلك » ، كان ذلك كافياً وضرورياً لاعتبارها ميتافيزيقية ، ومن الجدير بالتنويه انه ليس من الضروري أن تكون العبارة الميتافيزيقية متناقضة (على نحو ما تكون البراهين الميتافيزيقية على أن الخلود بعد الموت مستحيل) ولا ان تكون العبارة المتناقضة ميتافيزيقية (كالقول أن أفعال الانسان أنانية) . وقد دفعني اعتقادي بانه من الضروري أن تكون العبارات الميتافيزيقية قابلة للبرهان الى القول انه لكي ننقد الميتافيزيقا لا مناص من تفحص قيمة البراهين الميتافيزيقية الواقعية في حد ذاتها .

جلبرت رايل : فلنعكس الآية الآن فنفترض ان الميتافيزيقيين هم الذين توجهوا لامتحاننا ، وبدلاً من الاحكام التي اصدرناها على مشربهم ، لننظر الى ما يقولونه من أشياء سيئة عن فلاسفة النصف الأخير من هذا القرن ففي هذه الفترة بدأ الناس يرددون في فخر مرة وفي أسى أخرى بان الفلسفة بعد عهد الملكة فيكتوريا ابتعدت عن الأساليب التقليدية ، وأصبحت تتحدث - بلهجة مشجعة أو مثبطة تختلف عما كانت عليه من قبل - ومع ان تاريخ الفلسفة حافل بالتغيرات الكبيرة ، فاني على يقين من حدوث تغير جديد في اتجاه الفلسفة ولهجتها لهذه الفترة التي نقصدها ، ذلك ان الفكر البشري - مثله مثل حيوان يعيش في قوقعة - مقضي عليه ان ينتقل من حين لآخر من قوقعته القديمة الى قوقعة جديدة . فلنساءل الآن : ماذا يقول أجدادنا الميتافيزيقيون وهم ينظرون الينا من عليائهم ؟ اول ما نلاحظه أنهم لا يوجهون الينا ما صدر منا عليهم ، فهذا ارسطو ولاينز يرفضان صراحة الانتقادات التي وجهها افـرطـيون Plotinus "وهيكل الى التطورات الهائلة في المنطق الصوري عندنا . وها هو ذا كانت يلتزم جانب الصمت في حين ان افلاطون يُنحي علينا باللائمة لاهتمامنا الشديد بمبادئ

(١) افلوطين Plotinus (٢٠٥ - ٢٧٠) فيلسوف اغريقي ولد في مصر وعاش في روما ويعتبر مؤسس الافلاطونية المحدثه New — platonism وهو يرى ان العالم سلسلة من الانبعاثات من الواحد الذي هو المصدر الابدي لكل الوجود ، وانبعث أولاً العقل الكوني ثم الروح العالمي ثم الارواح الفردية وأخيراً الاجسام الفردية وبضمنها المادة .

(المترجم)

ومقومات العلوم الطبيعية والدراسات الانسانية ، وها هو ذا برادلي على وشك ان يثور على اهمالنا دراسة اللاهوت العقلي Rational Theology بينما يهمل هيوم لهذه النتيجة ويأسف عليها القديس توما الاكوينسي Aquinas ، ومهما يكن من أمر ، فان الغالبية العظمى منهم متفقون - كما يبدو- في عدد الانتقادات التي يوجهونها الينا . فأولاً يأخذون علينا اننا نصرّ على ان تنفادى التحدث عن الكون Cosmos ، وحتى لو سلموا معنا جدلاً بان قضايا الواقع ومنها قضايا الوقائع الكونية لا يمكن الثبوت منها عن طريق الاستدلال القبلي ، لسمعناهم يؤخذوننا على اهمالنا المسائل الأساسية التي كانت موضع عنايتهم الجدية . ولو قدر الينا ان نسمعهم لتناهى الينا احتجاجهم علينا على تجزئة الفلسفة الى أقسام لمجرد عجزها على أن تستمر علماً لما هو فوق الطبيعة Supra- mundane ولعلمهم يقولون لنا : اذا لم تدع المساح حاجة الى ان يكون مستكشفاً ، فلا أقل من ان يوحد خرائطه المحلية في خارطة واحدة تستغرق الكرة الارضية .

ومهما يكن الأمر فخليق بنا ان نعتزف دون انزعاج اننا قد وقعنا في الخطأ . فان الوقت لم يحن بعد الى بناء تراكيب Synthesis كلية جديدة ، ومنذ أربعين عاماً خلت حصلت ولا تزال تحصل تغييرات مستمرة في قواعد التفكير الفلسفي وادواته ، ولن نبليغ الذروة الا في مستقبل قد يطول أمره . وفي هذا الوقت نحسن صنعا اذا عملنا على تثقيف انفسنا مصطنعين وسائل خداعة (تكتيكية) Tactical لا منظمة (استراتيجية) Strategic ومعززين انفسنا بالفكرة القائلة ان اغلب الفلاسفة اصطنعوا هذه الوسيلة لتثقيف انفسهم .

وثانياً ، ينعقد اجماع فلاسفتنا القدامى على اننا نعنى - فى نطاقنا المحدود - بأمور جد تافهة ونهمل أشياء جد مهمة ، اذ يميل كل أمرىء الى التقليل من قيمة الاهتمامات التي لا يشارك زملاؤه فيها ، ولا يستطيع انسان - سواء أكان فيلسوفاً أم لا - ان يتنبأ لمنهج الذي يتبعه انه لن يؤدي الى طريق مغلقة . ولا يصح النقد جارحاً الا عندما يتحدد . وهذا افلاطون صاحب انصار كثيرين يتساءل : لماذا لا نستطيع التحدث عن خلود الروح الا قليلاً ؟ وهذا روسو يشكو من اننا لم نعد نتشكك في مصدر

سلطة الدولة . اما هربرت سبنسر فيخطأ في تقدير تأثير نظرية التطور في طبيعة الإنسان والمجتمع الانساني ، في حين يعتقد هوبز Hobbes أن تأثير النظارية فيها قد أهمل دون داع ، وبناء على ذلك فلنذكر بعض العيوب التي تُبصم بها لأغفالنا بعض الأمور ، ولا بد لي أن اذكر هنا أنني أرفض اختلاق الاهتمامات لمجرد ان الفلاسفة القدامى اخذوا علينا عدم الالتفات اليها .

انتوني كوتنن : وهناك اعتراض آخر لا يسوقه - فيما اعتقد - الفلاسفة القدامى ضدنا بل يسوقه نبابة عنهم بعض نقاد الفلسفة المعاصرة ، ذلك أننا حين نستغرق في أمور التحليل التافهة نفعل عن مشاكل هي من صميم تخصص الفيلسوف . وبدلاً من ايضاح الافكار وفهمها ، ندعو الى تهذيب الاخلاق وتقويم السلوك . والحق ان هذا موضوع تقادم به الزمن ، ولا يؤدي الجدال فيه الى كبير فائدة . وحينما يكون الامر كذلك قد يكون الاستماع الى فيلسوف كبير ذا تأثير : لنستمع الى ما يلي :

« ما السبيل الى تمييز الحق من الباطل ؟ ... هنا نجد كذلك فكرة

مبتسرة موهلة في الخطأ ، وهي الزعم بأنه ينبغي على الفلسفة الاخلاقية ان تقوم بهذا الواجب والا لم تكن ذات قيمة على الاطلاق . وعلينا ان نلاحظ أولا انه لا يمكن للفلسفة الاخلاقية ان ترشدنا الى ما ينبغي علينا عمله في حالات خاصة . يضاف الى هذا انه ليس من واجبات الفلسفة ان تقوم بذلك . وكل ما يترتب على الفلسفة ان تضطلع به هو « تفهم ما هو موجود » ، و يترتب على الفلسفة الاخلاقية ان تفهم الاخلاق الكائنة لا ان تضع القواعد الاخلاقية ولا تصدر التعليقات في وضعها - ومثل هذه الفكرة مدعاة للسخرية . وعلى العموم لا يقتضي ان تسبق الفلسفة في ارضائاتها اكتشافات العلوم الخاصة ولا التطور في التاريخ . ولا يقتضي على الفلسفة الاخلاقية ان تجعل العالم اخلاقيا ، بل ان تضع الاخلاق السائدة في العالم في صورة نظرية . ومن سوء الطالع ان تطلب من الفلسفة ان تقوم بأكثر من ذلك . . فلا يلجأ المرء الى لاهوتي ضليع بما هو كذلك للاسترشاد به في الخروج من صعوبة دينية عملية ، ولا يستعين بفلسفة جمالية بحثا عن اقتراحات لتناول مسألة فنية ، ولا بعالم في الفلسفة لتشخيص داء ووصف الدواء له ، ولا بفيلسوف في السياسة في أمور سياسية عملية ، ولا بعالم نفس في تدبير مكيدة ، قد يكون هؤلاء افضل من يسترشد بهم في هذه الامور ، ولكن ليس بصفتهم أصحاب نظريات ، بل بصفة اخرى .

ومن الغرابة بمكان أن يجيء هذا الدفاع المطلق عن عمل الفيلسوف في الوقت الحاضر من برادلي F. H. Bradley الذي كان اكثر الميتافيزيقين الإنكليز صلابة .

ميري ورنك : ينبغي - فيما أرى - أن نعود الى النقطة التي أثارها رابيل

لنرى هل تُعنى عناية كافية بالمسائل المهمة التي بحثها الميتافيزيقيون ، .
وربما كان الواجب ان نسأل : هل تخلت الفلسفة في الحقيقة عن ميدانها
المهم الطريف الخاص بها واهتمت - فيما يقال عادة - بالترهات ؟

انتوني كونتن : في المقال الافتتاحي في ملحق جريدة التايمز الادبي نجد
مثالا واضحا هذه الحملة على الميتافيزيقا اذ يقول كاتبها « قد بلغ الحال
بالفلسفة ادنى مما كانت عليه أيام المدرسيون يتجادلون في صوامعهم . وقد
أخذ أحفاد بورانكي^(١)

Bosanquet و **Bradley** ومكتكرد **Mctaggart** ومور
Moore يناقشون حول جزئيات تافهة في المنطقة ليس لها نصيب من
الواقع ولا اهتمام من الجمهور . » .

ميري ورنك : هذا هو بيت القصيد ، . ولا بد ان أقول بان هذه النظرة
المنطرفة صحيحة ، بل تنطوي على كثير من المغالاة ، ولكنها مغالاة في شيء
أحس به الناس في غالب الأحيان ، والمسألة هي : هل يتوجب علينا ان
نعود بالفلسفة الى تلك المسائل التي كان للفلاسفة الميتافيزيقيون يُعنون بها
أساساً ؟ للإجابة عن هذا السؤال لا بد ان نشير الى نقطتين : الأولى هي ان

(١) بورانكي B. Bosanquet (١٨٤٨ - ١٩٢٣) فيلسوف انكليزي يدين بالمثالية
المحدثنة التي تعتبر الحقيقة خيرة فردية عقلية تشمل كل شيء ، وتتضمن الشمول والعيانية ،
ولا وجود لغير هذه الخيرة . اما الجزئيات الأخرى - العقول منها والاشياء - فهي فردية
وحقيقة وعيانية بصورة جزئية .

(المترجم)

المسائل التي أثارها الفلاسفة الميتافيزيقيون هذه الايام لم تلق الاهمال في جملتها . والثانية هي : انه لا يمكن ان نعوض النظر عن الانتقادات التي سبقت ضد الميتافيزيقا في المقالات السابقة . فمن المحال ان نواصل البحث وكأن هذه الانتقادات لم تكن ، نخلص من هذا الى انه مهما تكن المسائل التي ينبغي على الفلاسفة اثارها أو عدم اثارها ، فانهم لن يحاولوا الاجابة عليها بالطرق الميتافيزيقية الخالصة ، واذا كان اهتمامنا في الوقت الحاضر أضيق من ان يتسع لكل المسائل الميتافيزيقية ، فان توسيع آفاقنا الفكرية لا يعني العودة الى بناء الانظمة الميتافيزيقية أبداً .

جلبرت رايل : ننظر الآن في بعض الاشياء المهمة التي يمكن أن نؤاخذ على اهمالها . لم تكن الفلسفة في النصف الاخير من هذا القرن على وفاق تام مع اللاهوت . فقد حضرت مئات من المؤتمرات الفلسفية وقرأت المئات من المقالات في المجالات الفلسفية المعاصرة ، ولا أذكر اكثر من عشرين بحثاً في اللاهوت ، وقد ولى الزمان الذي كان غلادستون^(١) فيه يجادل توماس هكسلي^(٢) T.H. Huxley في أمور لاهوتية دقيقة في احدى مجلات لندن الشهرية الرئيسة ، والحقيقة ان النقاش بينهما كان مستمراً قبل

(١) غلادستون Gladstone (١٨٠٩ - ١٨٩٨) سياسي انكليزي نادى بالتححر .
(المترجم)

(٢) هكسلي T. H. Huxley (١٨٢٥ - ١٨٩٥) عالم انكليزي بارز وصاحب مؤلفات وابحاث كثيرة .

(المترجم)

مولدي بعشرة سنوات فقط ، فقد مضى عهد طويل جداً عندما كانت الغالبية العظمى من المسائل النظرية تعود الى نزاعات بين نظرية لاهوتية واخرى أو بين اللاهوت والعلم أو التاريخ أو الاخلاق أو الحس السليم الاعتيادي . فاذا اشتد الحماس اللاهوتي (الديني) ازداد حظ الفلسفة اللاهوتية من اهتمام الباحثين ، واذا خفّ هذا الحماس قل نصيبها من عنايتهم ، ولا يستطيع الفيلسوف ان يخلق الصعوبات والمضايقات الفكرية . بل لا بدّ له من الاحساس بها قبل ان يحمل نفسه على معالجتها .

وأستطيع أن أقول بدون مغالاة أن الحماسة اللاهوتية قد خفتت ولكن لم تمت تماماً ، وان الفلسفة اللاهوتية ، مع انحسار موجتها ، لم تتلاشى تماماً ، اذ يوجّه بعض الفلاسفة بين حين وآخر اهتمامهم الى الاختلافات بين الافكار اللاهوتية والعلمية والاخلاقية ، ويقول البعض منهم ان العبارات اللاهوتية من الناحية الجدلية على الاقل لا تتضمن افكاراً على الاطلاق ، ولكن جل الناس يغفلون هذا الموضوع في أغلب الاحيان وقلما يذكرونه . ولا بدّ لي أن أشير الى انني لا أتحدث هنا عن الدين بل عن اللاهوت ، ذلك الموضوع الاكاديمي الذي اختلفت فيه المدارس والباحثون وقدموا فيه أبحاثاً متباينة وأصدروا عنه المجلات ومنحوا فيه الشهادات ، وله معتقداته القويمة وهرطقاته .

وعليه فينبغي أن ندرك ان اللاهوت لما يعد حازلياً باهتمامنا ، فلا داعي للشعور بالاثم بسبب ذلك .

انتوني كونتن : وفوق ذلك اهمل الفلاسفة موضوعاً تقليدياً آخر من

الفلسفة الأكاديمية في السنوات الأخيرة وهو دراسة السياسة دراسة فلسفية .
ويبدو ان الفلسفة السياسية التي تؤلف أهم جانب من جوانب النزعة
الهيكليّة في انكلترا قد اختفت أثناء التدهور العام الذي أصاب طريقة
التفلسف تلك ، وانا لا أدعو الى بعثها في صورتها القديمة بما تنطوي عليه
من مشاكل وابحاث فلسفية أصيلة انطمرت واختلطت بأشياء غريبة عنها .
ومع هذا كله وجدنا الفلسفة ممتزجة بالتاريخ وبالعلوم السياسية النظرية
وبتوصيات باتباع سياسات معينة وبدراسة المنظمات دراسة مقارنة وما الى
ذلك . فاذا كان الامر على هذا النحو المرعب من الاختلاط ، فيحسن ان
نكف عن القيام بأشياء كثيرة في وقت واحد ، والحقيقة ان رغبة النظرية
السياسية التقليدية في تحقيق أشياء متعددة مختلفة تركت أثراً سيئاً في الدراسة
العلمية للسياسة في هذا البلد (انكلترا) . ونحت ستار وصف المنظمات
السياسية ومقارنتها على أساس من البداهة أصبحت ذيلًا للتاريخ ، محتذية
في ذلك حذو باجهوت^(١) Bagehot الذي كتب الدستور الانكليزي
The English Constitution ومتغافلة عن باجهوت الذي كتب
الفيزياء والسياسة Physics and Politics

(١) باجهوت Bagehot (١٨٢٦ - ١٨٧٧) عالم اقتصاد انكليزي وصحفي . كان
محرر مجلة الاقتصادي The Economist ١٨٦٠ - ١٨٧٧ ، كتب كتاباً خالداً وهي :
الدستور الانكليزي ١٩٦٧ .
The English Constitution والفيزياء والسياسة Physics and Politics
. ١٨٧٢

(المترجم)

ولهذا السبب أدعو الى بذل المزيد من الاهتمام بالمشاكل الفلسفية الناشئة من الدراسة العلمية للمجتمع البشري ، كالمشاكل التي يتضمنها هذا الموضوع المعقد وكون الشاهد جزءا مما يشاهده ، وان نظرياته تؤثر في الحقل الذي تعود اليه . وان المواقف التي تجد الكائنات البشرية نفسها فيها نسيج وحدها ، وان الطرق التجريبية والكمية لا تنطبق على المجتمع البشري الا الى حد ما ، وما الى ذلك . فلا يتمتع هذا الموضوع بسمعة طيبة ، ولكن الاهتمام بفلسفة التاريخ النقدية لا التأملية وبدارسة النهج التاريخي دراسة فلسفية قد يشجعنا على تطبيق هذا النهج ذاته على طرق أقل رسوخاً في دراسة الشؤون البشرية .

فالملاحظ ان الفلاسفة لم يهملوا الجانب الفلسفي الخالص من النظرية السياسية التقليدية ابدا ولعلنا نتوقع ان يُظهر الفلاسفة من جديد اهتماما ينشأ نتيجة تطورات جديدة في حقل ذي صلة وثيقة بالسياسة ويشاركها في مشكلات كثيرة - كمشكلات الحقوق والسيادة - وهو فلسفة القانون ، فتبدو لنا العدالة في آخر الامر وقد بحثت على أساس الفقه التحليلي الانكليزي الذي يرجع الى بنثام^(١) Bentham واوستن^(٢) Austin

(١) بنثام Bentham ، ج. (١٧٤٨ - ١٨٣٢) مؤسس المدرسة النفعية الانكليزية في الاخلاق .

(المترجم)

(٢) اوستن John Longshaw Austin (١٩١١ - ١٩٩٠) استاذ الفلسفة الاخلاقية في جامعة اكسفورد ومن أنصار التحليل الفلسفي .

(المترجم)

نخلص من هذا الى ان العمل الذي انجزه الفلاسفة والذي يظهر مشكلات فكرية (ذهنية) أو منهجية تتعلق بالقانون والتاريخ والعلوم الاجتماعية عمل من شأنه الردّ على الاتهام القائلة ان مشاغلنا تافهة ولا عبرة بكونها اكاڤيمية أو وهمية .

ميري ورنك : ان الموضوعات التي تناولها البحث وثيقة الصلة بالفلسفة الاخلاقية ، ولا بد لي أن أشير الى أن وصفها بالتفاهة أمر لا مبرر له ، ويزعم الناس - فيما أحسب - ان الفلسفة بصورة عامة والفلسفة الاخلاقية بصورة خاصة قد اصبحت موضوعاً لا يؤبه له لانهم لا يجدون في مؤلفات الفلاسفة المعاصرين تلك النغمة الخاصة وذلك الأسلوب الجدل المرتبط بالفلسفة الصحيحة أي الفلسفة كما ينبغي أن تكون . ويبيدي الناس قلقهم لأن البحث لا يتناول مسائل جديّة أو حقيقية بل تافهة ومضحكة . ولكن لا يؤلف هذا في رأيي نقداً عميقاً . لحالة الفلسفة-الراهنه ، فان المرء ليستطيع أن يجد الجديّة والطرافة في أتفه الأشياء اذا كانت واضحة ومختارة على الوجه الصحيح . وقد يتحقق التقدم في موضوع من الموضوعات باستخدام اسلوب واضح كما يتم باستخدام اسلوب معقد وعويص . ومع ذلك فقد يبيدي الناس تبرماً أكبر بالفلسفة الاخلاقية ، ذلك التبرم الذي أشارت اليه الأنسة مردوك^(١) Murdock في مقالاتها الميتافيزيقا والاخلاق .

(١) مردوك Iris Murdock (١٩١٩ -) روائية وفيلسوفة انكليزية

وربما سأغ أن نقول أن كثيرا من فلاسفة الاخلاق المعاصرين في انكلترا قد التزموا ببعض المسلمات المتحررة الى حد مما ادى - كما أشارت الى ذلك الانسة مردوك الى توضيح مجال اهتمامهم وحال بينهم وبين النفوذ الى عناصر الموضوع المعقدة ، ولا شك في أنه من الافضل ان نتقصى المسلمات المختلفة التي يفترضها الناس وان نبتدع مفاهيم جديدة تساعدنا على تحليل السلوك البشري اذا دعت الحاجة . والافضل على الاقل ان لا نقص اهتمامنا على مفاهيم واسعة ومألوفة مثل (الخيرية) Goodness و (الواجب) Duty (و) ينبغي Ought . ولكن اذا كان توجيه الانتباه الى هذا النقد له قيمته الكبيرة ، فعلينا ان نتذكر انه مهما عملنا على توسيع آفاقنا الفكرية ، فلن نستطيع ان نعود القهقري الى تلك النظرية الاخلاقية المستمدة - فما زعموا - من التفسير الكلي لمكانة الانسان في الكون ولا يعني هذا - بطبيعة الحال - اننا لا نستطيع الافادة من الميثافيزيقيين ، فيمكن مثلا أن نتعلم أمورا كثيرة من سبينوزا مع اننا قد نرفض نظامه بحرفيته . ولكن أرى أن ادخال مفاهيم جديدة في الفلسفة الاخلاقية لا يؤدي الى حصول تغيير جذري في موقف الناس الحالي . واذا استطاعت الفلسفة ان تسبع الطرافة على مباحثها ، فلن تستطيع ان تغير من طبيعتها أبدا .

جلبرت رايل : اختصارا للقول ، الآم - هذه المناقشات ؟
اذا لم نستطع أن نتوصل الى تعريف لغوي مقبول « للميثافيزيقا » ، فاننا

سارت في اتجاه مور - فتكشناين الذي لا صلة له بالوجودية . ومع ذلك روجت للوجودية في كتبها ولها دراسة رائعة عن سارتر .

(المترجم)

قد اتفقنا على تحديد الفلاسفة الذين ينبغي أن يحملوا وصف
« الميتافيزيقيين » .

وقد اتفقا أيضا في احكامنا على تقدير الانجازات التي قدمها كبار
الميتافيزيقيين في الماضي ، فأولا جاؤا بنظريات في الوجود ، أي سعوا الى
استخدام عناصر فكرية للبرهان على قضايا تتعلق بالوجود ، وكانت تلك
غلطة . وثانيا ، حاولوا كما نحاول الآن - تتبع وازالة الصعوبات المنطقية
بين الافكار المنظمة في الحياة اليومية والتفكير التقني Technical ، وقد
أفدنا من عملهم في هذه المجالات فوائد جمة ، وثالثا ، وضعوا أمثلة كثيرة
للفلسف التي امتنعنا عن الاخذ بها ، فكنا موضع تقريع بحق أحيانا وبغير
حق أحيانا أخرى ، فنحن - فيما قيل - نحجم عن توجيه الناس والقاء
المواعظ عليهم ، ولم نعد نَعْنى باللاهوت ، وأصبحنا نَعْنى بدقائق الأمور
وأهملنا المشكلات السياسية ، وغدت فلسفتنا الاخلاقية تافهة وعلى العموم
أخذنا نوجه العناية الى التفاصيل دون الاشياء باعتبارها كلاً .

وبعد فكلنا أمل في أن يكون ما قدمناه من أفكار وما دحضناه من آراء
حافزا لنا على الاستزادة من المعرفة في تواضع وصبر .

طائفة من المصطلحات الانكليزية
الواردة في الكتاب
ومرادفاتها بالعربية

(A)

Acceptability	قبول
Adjustment	تكيف ، تعديل
Aesthetic	جمالي ، فني
Analogy	تشبيه ، نظير
Appearance	مظهر ، ظاهر
Apriori	قبلي ، قبل التجربة
Aposteriori	بعدي ، بعد التجربة
Anbitrary	كيفي ، تعسفي
Argument	حجة ، دليل
Assertions	تأكيدات
Axioms	بديهيات

(B)

Being	الوجود
-------	--------

(C)

Causation	السببية ، العلية
Characterization	تحديد معالم ، وصف
Clarification	توضيح
Commands	أوامر ، إيعازات
Comprehensiveness	شمول ، استغراق
Concepts	مفاهيم
Conceptual	ذهني
Conditions	شروط
Configurations	تشكيلات ، صور
Confirmation	الثبت من ، التحقق من
Connectives	سياق
Context	روابط
Contrast	مقارنة ، تباين
Controversy	نقاش ، خلاف كلامي
Constructive	بناء
Cramp	ذهان
Criteria	مقاييس ، معايير

(D)

Deception	خداع
Decisions	قرارات

Deduction	استنتاج
Descriptive	وصفي
Destructive	هدام
Dictum	قول مأثور ، مثال
Difference	اختلاف
Diversity	تعدد ، اختلاف
Doctrine	مبدأ
Dogmatic	ايقاني

(E)

Efficient	فعال
Elements	عناصر
Elimination	اقضاء ، استبعاد
Emotive	انفعالي
Empirical	اختياري
Enquiry	بحث ، تقصي
Entities	ايعان ، موجودات
Equivalence	تكافؤ
Essence	ماهية
Existentialism	الوجودية
Experience	خبرة

(F)

Fallacy	مغالطة
Falsehood	كذب
Formal	شكلي ، صوري
Formulas	قواعد
Foundations	أسس
Framework	أطار

(G)

Good	الخير
Goodness	الخيرية

(H)

Hallucination	هلوسة
Hypothesis	فرضية

(I)

Identity	الذاتية
Illusion	وهم
Immortality	الخلود
Imperatives	أوامر

Impetus	دافع ، باعث
Incompatibility	الافتقار الى التلاؤم
Inevitability	الحتمية
Intuitive	حدسي

(J)

Justification	تبرير ، تسويغ
----------------------	---------------

(K)

Kinetic Theory of Gases	النظرية الحركية للغازات
--------------------------------	-------------------------

(L)

Laws	قوانين
Manifestations	تجليات ، مظاهر
Metaphysics	المتافيزيقا ، ما بعد الطبيعة
Mental	عقلي
Method	طريقة
Methodological	مناهجي
Misrecognition	ادراك كاذب
Model	نموذج
Morality	الاخلاقية

Nonsense	مذيان ، كلام
(N)	
Notions	مفاهيم
(O)	
Observation	ملاحظة
Ontology	علم الوجود
Optimism	تفاؤل
(P)	
Paradox	متناقضة
Perceptual	ادراكي ، حسي
Phenomena	ظواهر ، مظاهر
Plurality	تعدد ، تكثر
Postulate	مصادرة
Preference	ايفثار ، تفضيل
Prejudice	تحيز
Premises	مقدمات
Presuppositions	مستلزمات ، أسس
Principles	مبادئ
Procedure	طريقة ، أسلوب
Process	عملية

Propaganda	دعاية
Propensity	نزعة ، ميل
Proposition	قضية

(R)

Rational	عقلي
Rationalization	تبرير
Reaction	الواقع ، الحقيقة
Reallocation	اعادة وضع
Re-drawing	اعادة رسم
Reduction	رَدّ
Refutation	دحض
Relations	علاقات ، نسب ، اضافات
Resemblance	تشابه

(S)

Sample	عينة
Sceptical	شكي
Sense-impressions	انطباعات حسية
Situations	مواقف
Substance	جوهر

Super-structure
System

بناء فوقى
نسق ، نظام

(T)

Theology
Totality
Transcendent
Transcendental
Treatise
Truths

لاهوت
الكلية
متعالى ، مفارق
صوري ، شرطي
بحث
حقائق

(U)

Unification
Uniform
Unity
Utilitarian

توحيد ، دمج
موحد ، على نسق واحد
وحدة
نفعي

(V)

Validity
Valuable
Values
Verifiability
Verification

صحة ، سلامة
قيم
قيم
قابلية التحقق
تحقق

(W)

What is

What ought to be

ما هو كائن ، ما هو الحال
ما ينبغي ان يكون ، ما ينبغي ان
يكون عليه الحال

فهرست

٥	مقدمة المترجم
H. P.	الفصل الاول . - الميتافيزيقا ، بقلم أج . بي . جرايس
Grice	و دي . أيف . بيرس D. F. Pears و بي . ايف . ستروسن
٧	P. F. Strawson
الفصل الثاني . -	الانظمة الميتافيزيقية ، بقلم أس . ان . هامبشر
٣١	S. N. Hampshire
الفصل الثالث . -	الحجج الميتافيزيقية ، بقلم بي . أي . أو .
٤٧	B. A. O. Williams
الفصل الرابع . -	العلم والميتافيزيقا ، بقلم : جرد . بوجدال
٦٩	Gerd Buchdahl
الفصل الخامس . -	الميتافيزيقا والتاريخ ، بقلم : بي . ال .
٩٧	P. L. Gardiner
الفصل السادس . -	الميتافيزيقا والاخلاق ، بقلم : ايرس مردوك
١١٣	Iris Murdoch
الفصل السابع . -	نقد الميتافيزيقا ، بقلم : جي . جي . وارنك
١٤١	G. J. Warnock
الفصل الثامن . -	مناقشة ختامية ، بقلم : جلبرت رايل Gilbert
A. M.	وميري وارنك Mary Warnock وأي . ام . كونتن
١٥٧	Quinton
١٨٢	طائفة من المصطلحات الفلسفية

Translated into Arabic by
Karim Matta, Ph. D. (Wisconsin)
Reveiwed by
Kamil Mustafa El-Shaibi, Ph. D. (Cantab.)
Prof. College of Arts Univ .of Baghdad

طبيعة الميتافيزيقا

ترمي هذه الدراسة إلى البحث في طبيعة الميتافيزيقا ومعرفة الخصائص التي تميّزها عن سائر الموضوعات الفلسفية الأخرى. وهذه والحق، مسألة لا يمكن معالجتها في حيدة وتجرد. ولا بدّ لنا أن نذكر - بادئ ذي بدء - أنّ عدداً كبيراً من الناس يرى أنّ الكشف عن المبادئ الميتافيزيقية هو شغل الفلاسفة الشاغل، بل ويذهب بعضهم إلى أنّ الميتافيزيقا هي المبرّر الوحيد لوجودهم. ومن ناحية أخرى، تعتقد طائفة من الناس، ومن بينهم بعض الفلاسفة، أنّ المبادئ الميتافيزيقية زائفة جملةً وتفصيلاً، وأنّها خلّو من أية دلالة على الإطلاق. من هذا، يتبيّن أنّ للميتافيزيقا قوة عجيبة في اجتذاب الناس إليها وتنفيرهم منها...